

وِستون تشرشل



بقلم
هايج مارتون
ترجمة:
محمود عزت موسى

حياته
سياسته
معاركه

9
92
C5

ولسنون تشرشل

حیات و مقامراتہ و معارفہ

بقلم
ہنیج مارتین

ترجمہ
محمد عزیز موسیٰ

الناشر
دار المفکر

ونستون تشرشل

حياته ونشأته الباكرة

تتسم حياة السياسي العجوز الداهية ونستون تشرشل بتعدد جوانبها ، وغرائبها ، ولقد لعبت الأقدار في حياته دوراً هاماً منذ نشأتها ولقد قال لورد دابرنون السياسي البريطاني في كتابه «سفير السلام» : في الواقع أن ونستون تشرشل كان ثمرة لوالدين غير عاديين . . فلقد كان والده لورد راندولف سبنسر تشرشل الابن الثالث لدوق مارلبورو السابع وكانت أمه جانيت أو جيني جيروم ابنة ليونارد جيروم الصحفي الأمريكي بمدينة نيويورك ، وكان هذا الجد صحفياً مغامراً ، ومن المتحمسين لسباق الخيل ، وكان والدا تشرشل بالتالي شخصين غير عاديين ، ومع أنهما لم يصيبا قدراً كبيراً من الثقافة الواسعة ، إلا أنهما كانا على جانب كبير من الذكاء واتساع الأفق . . كان راندولف تشرشل خطيباً مشهوراً بين المحافظين ، وله جولاته في الحياة السياسية ، وكان معروفاً لدى أقرانه بضحكاته المجلجلة وتعليقاته اللاذعة ، ولقد ورث ابنه ونستون عنه هذه الصفات . . وكان والده يهوى الصيد

أكثر مما يهوى الكتب ، وعندما صار عضواً في البرلمان لم يكن يقل ثقافة عن باقي الأعضاء من طبقته ، ومع هذا فإن ما كان ينقص والده من العلم كان يعوضه بالذكاء .

التقى راندولف تشرشل بزوجته لأول مرة في حفلة راقصة على ظهر إحدى السفن ، وكانت جيني جيروم ، فتاة أمريكية ، متألقة ، وكانت في طريقها لرحلة طويلة لأوروبا ، ولم تكن هذه أول عهدها بأوروبا ، فلقد كانت تعرف معالمها تماماً ، كما تعرف وطنها أمريكا ، إذ أنها ولدت في إيطاليا عندما كان والدها يشغل منصب قنصل الولايات المتحدة بمدينة تريستا .

وعندما التقى راندولف تشرشل بزوجته المقبلة جيني جيروم لأول مرة في تلك الحفلة كان هو في الرابعة والعشرين ، وكانت هي في التاسعة عشرة . . وما لبث راندولف أن شغف بها حباً ، بيد أن هذا الحب لم يرق في نظر والده ، وبذل جهده لكي يحول بين العاشقين ولكن راندولف لم يطق أن يحول حائل دون أن يظفر بحبيبته ، فمضى في أثرها ، ولحقها في باريس حيث عقد زواجه عليها في السفارة البريطانية بباريس في ١٥ أبريل ١٨٧٤ . . وولد ابنهما الذي أسماه ونستون ليوناد سبنسر تشرشل في نهاية نوفمبر من تلك السنة . . أي بعد سبعة شهور من زواج والديه .

لم يكن ونستون تشرشل في أول عهده بالحياة بالطفل المحبوب ومع أنه لم يكن قوى البنية ، فانه لم يكن خفيف الظل ، ميالا للدعابة ، ولعل الشخص الوحيد الذى كان يعتبره طفلا رقيقاً هي مربيته .. كانت مظاهر الجذ تبدو كأحد صفاته وكانت أطباعه تبدى على نحو يبلغ حد الشراهة .. وكان بشعره الأحمر ، وعينه الواسعتان الزرقاوين وأنفه الأفطس ، يبدو كأنه لا يالف الراحة ولا يستكين للدعة ، بل يريد أن يشيع القلق والاضطراب لنفسه ولمن حوله .. وكان والده يدرك هذا فى ولده ، وحاول أن يهذب من حدته ومن اندفاعه ، ولكنه لم يمض طويلا فى هذا ، وترك ولده ينمو على هذه الطباع التى تتسم بالجد والاندفاع .

كانت الشخصية الوحيدة التى يالف إليها ونستون تشرشل فى طفولته ويركن إليها ، والتى استطاعت أن تفهمه هي مربيته السيدة افرست .. ولا تزال صورة هذه المربية تحتل مكانها فى قصره بشارتول كما كانت فى مكانها أيام كان يعيش فى حى مايفير قبل أن يتزوج .. وكان هذا الطفل العنيد ، الجامح ، لا يكاد يراها مقبلة عليه لزيارته عندما كان تلميذا فى مدرسة هارو حتى يهرع إليها ليقبلها .

وفى سن الرابعة ، عاش ونستون تشرشل عاما أو أكثر فى

ايرلندا ، فى رعاىة مربيتة ، حيث كان والده يعمل هناك فى إحدى
الوظائف الدبلوماسية .

ولم تكن أيام دراسته الباكورة أياماً مشرقة مبهجة ، كما يقول
هو ذلك . . بل أنه لىذكر بأنها كانت أشق فترة فى حياته . . فقد
كانت علاقاته سيئة مع زملائه . . وكانت الدروس التى يتلقاها
فى ذلك الحين لا تتلائم مع طبيعته البرية ، ورغبته الجامحة ، فكانت
كما وصفها « مضیعة للوقت وللحال فى وقت واحد ، وفى الواقع أن
دراسته فى هذا السن كانت متعثرة ، وكانت برامج الدراسة وأساليبها
لا تتلائم هذه الطبيعة التى بذرت بذورها فى هذا الطفل وكان من
المحتمل أن تكون هذه الدراسة التى يمجها ويمقتها سبباً فى تدمير
حياته كلها ، لو لا أنه استطاع بنفسه أن ينفلت من تأثيرها وآثارها
عليه . . وفى الوقت ذاته فإن صحته كانت متدهورة ، وازدادت
سوءاً فى سن التاسعة ، وكان ناظر المدرسة فى ذلك الحين ، رجلاً
عنيفاً قاسياً ، وطالما كانت تسمع صرخات الطفل والناظر ينهال
عليه بالمقرعة ضرباً . . وكان لهذا اللون من التعذيب الذى لقيه من
ناظر المدرسة أثر بالغ فى نفسية الطفل ، فاشتد حنقه عليه ، وكرهه
له ولم يتورع أن يتآمر على الناظر أخذاً بالنار ، بل لقد رفس
قبضته بقدميه وكان جزاؤه المزيـد من الضرب .

أما بقية المدرسين ، فكانوا يعتبرونه طفلاً غيباً ، شرساً ،

هنيئداً . . فأمعنوا في القسوة عليه مما أدى إلى انهيار صحته ،
وانقطاعه عن تلك المدرسة .

ولكن ذلك لم يدم طويلا ، وتفتحت عين الأسرة على حالته
وعلى ما يحدث ، ومن ثم فقد استقر بهم الرأي إلى نقله لمدرسة
أخرى تشرف على الدراسة فيها بعض المعلمات ، ليلقى معاملة أرق
جانبا منهن . . ولقد عبر الكاتب الانجليزي المشهور هـ . ج . ويلز
عن تلك الفترة القلقة المضطربة من حياة ونستون تشرشل بقوله :
لقد مرت على حياة ونستون تشرشل في تلك الفترة الأولى من حياته
سحابة قاتمة ، كان من الممكن أن تودي به ، فقد كان يبدو كولد
شقي معربد ، خطر . .

وكان نقله إلى مدرسة بريتون . ليكون في دراسته في رعاية
معلمات أرق جانبا ، وأحسن معاملة ، تدير آ يتسم بالعقل والحكمة
إذا أثبتت التجربة القاسية التي مرت به من قبل أن الضرب لم
يستطع أن يجعله طفلا مهذبا منتظما ، مستقيما ، بل لقد زاده ذلك
سوءا وشدوذا ، عدا أنه أثر على صحته تأثيرا بالغاً كاد يرديه .

وكانت إحدى معلماته الأنسة إيفا مور تشتغل بالتمثيل ،
فحاولت أن تعلمه الرقص . ولقد وصفته هذه المعلمة بعد ذلك
بسنوات قائلة : « هذا الطفل الضئيل الحجم ، والتلميذ الأحمر

الشعر ، كان يبدو أنه أشد التلاميذ ضراوة في الفصل . . بل أشد
الأطفال شراً في العالم ! .

ولم تكن الألعاب تستهوى ونستون تشرشل الطفل في حداته
فيما عدا شغفه بالمسرح ، وخاصة مسرح العرائس ، وكانت الرواية
التي يؤثرها على غيرها هي قصة « علاء الدين » ، إذ كانت تستهويه
وقائعها المثيرة ومفاجأتها اللطيفة . . وتنال اهتمامه كله .

وتضاعف حب ونستون تشرشل للمسرح وخاصة مسرح
العرائس كما ذكرنا وكان ينفق عليه كل ما يصل إليه من نقود في
شراء معداته ومستلزماته بل لقد كان جل أمانيه في تلك المرحلة
الباكرة من حياته لو صار ممثلاً ! وقد برع إذ ذاك في التمثيل وأجاد
في إحدى المسرحيات المسماة « الوريث في القانون » ، إذ كانت له
ذاكرة مذهلة في حفظ الأدوار . . كذلك لم يستحوذ عليه الحياء أو
الخجل ليحول دون إتقان دوره . كذلك كان تعبيره مؤثراً قوياً . .
ولم تكن لشغفه الأطفال ، أو تردد هم في النطق تعتوره ، بل كان جريئاً
في تعبيراته أمام المشاهدين ، دون أن يتلجلج في النطق أو يرتج
عليه في الموقف . . وهذه الصفات من الجرأة والافتحام تعتبر من
صفات الأساسية التي لازمته طيلة حياته ، ، وليس ثمة ريب أن
هذه الظاهرة ، تعتبر وراثية .

وفي هذا السن ، أى سن العاشرة تقريباً ، أبدى ميلاً دافقاً
للصحافة والتحرير ، وأنشأ صحيفة ، كان هو مالكها ومحررها
وأسماءها ، النقد ، وكانت تعتبر من صحف المدارس المميزة ،
وكانت تحرر باليد من نسخة واحدة ثم قام بإنشاء صحيفة أخرى
أسمها الجازيت البريطانية .

وأصيب في ذلك الحين ببرد شديد ، انقلب إلى التهاب رئوى
حاد كاد يودى بحياته . فلما حان موعد التحاقه بكلية أيتون
التي تلقى فيها والده فيها دروسه عدل أبوه عن إلحاقه بها ، لأن
مكانها لا يلائم صحته الضعيفة فالتحق بمدرسة هارو التي تقع
مبانها على مرتفع صحي .

وفي امتحان القبول بمدرسة هارو ، كانت نتيجته سيئة جداً .
فقد كان يكره اللغة اللاتينية كراهية شديدة إبان وجوده في مدرسة
بريتون ولقد ظل طيلة أيامه بعدئذ . . لا يرتضى أن يتعلم أى شيء
تمجه نفسه أو لا يرتاح إليه . . بينما كانت اللغة اللاتينية في ذلك الحين
من أهم الدعائم التي يجب على التلميذ أن يتقنها لكي يبدأ حياة مدرسية
لائقة . . وعلى هذا فقد وضع ونستون تشرشل في كلية هارو في
آخر الصف المدرسي إذ أنه لم يجب على كلمة واحدة في امتحان
اللغة اللاتينية .

كذلك لم يوفق في رياضة التسلق طيلة السنوات الست التي
أمضاها في كلية هارو حتى التحق بكلية ساند هرست . بل لم يحاول

أن يتفوق في هذه الرياضة .. كذلك لم تستهويه رياضة كرة القدم في المدرسة كثيراً ، وكان ينظر إليها نظرة مغايرة عن أقرانه .. بل لقد كان في فترة ما في أثناء الدراسة من الفريق المعادي للعبة كرة القدم .. كان ما يميزه عن غيره من التلاميذ قدرته الفائقة في الحفاظ وقوة ذاكرته .. ولكنه كان كارهاً للغة اللاتينية كما كان ضعيفاً في اللغة الفرنسية إلى حد الركاكة ، وكذلك لم تكن معلوماته في اللغة اليونانية تزيد عن معرفة حروف الهجاء .

ولكن حبه للصحافة ، كان قوياً جارفاً - يملك عليه تفكيره ، وكان هذا يرضيه ، إذ أنه لم يكن له حظ يذكر في ميادين الألعاب الرياضية لضعفه جسمه وقتئذ .. وكان هو يغير نفسه بذلك ، ولقد قال في بعض مذكراته ، إن والدي كان عظيماً .. بالرغم من أنه كان صغير الجسم .

وانخرط ونستون تشرشل في سلك محرري صحيفة كلية هارو وكان يوقع بإمضاء « جوننيوس الصغير » في تعليقاته ومقالاته المتعددة لم يلبث أن وجه إلى النظم المدرسية نقداً لاذعاً .. وإلى أساليب التلاميذ في ضياع أوقات الفراغ . وبالرغم من ذلك فقد امتاز في لعب السيف وأحرز بطولة المدارس في لعبة السيف وكانت هذه اللعبة بالذات تستهويه .. ولسوء حظه فإنه أصيب في ذراعه الذي يلعب به السيف ، وظل عاجزاً طيلة حياته عن مواصلة

هذه اللعبة التي كان يحبها بعد إحرازه لتلك البطولة لسنوات قليلة ،
وهكذا أيضاً لم يستطع أن يزاول لعبة التنس .. وكان يؤثر كذلك
لعبة البولو إلا أن عجز ذراعه كان يحول دون أن يمارس هذه اللعبة
إلا بصعوبة في بعض الأحيان التي يرغب فيها أن يلعبها .. ولقد
حدث في أم درمان بعد ذلك أن ألقى بسيفه ومضى يقاتل ببندقية
الموزر ، التي كان يحملها .

أزاح تشرشل عن تفكيره كل رغبة للالتحاق بالجامعة ..
ولقد استقر به الرأي على ذلك في السنة الأخيرة من وجوده في كلية
هارو واعتزم بدلا من ذلك أن يلتحق بكلية ساندهرست الحربية
وأن ينخرط في سلك الجيش .

ولقد قال والده في ذلك : « بأن هذا هو الحل الوحيد لهذا
المغفل البليد الذي يصلح له كما أشار أيضاً بأن هذا المخرج قد يتيح
له حياة تتفتح له في المستعمرات .. » ثم إن هذا الصبي يبدي مهارة
خارقة في اللعب مع ذلك الجيش من الدمى الذي يتكون من ١٥٠٠
جندي من الصفيح — وكان الصبي قد أوصى بصنع هذه المجموعة
المهائلة من الدمى — وليس ذلك فيه من الدلائل ما يشير إلى فطنته
باللعب مع هذه المجموعة الكبيرة من الجنود ؟

وهكذا التحق بكلية ساندهرست .. ووافق ذلك مزاج
ونستون تشرشل الصبي ، فإنه على أية حال سيكون حراً وقد نفذ

بجلده من تلك اللغة اللاتينية اللعينة .. فهو يكره تلك اللغات الميتة ..
وأى نفع يعود منها بأى حال من الأحوال ؟ إنه يريد أن يعيش
منطلقاً بغير حدود ، يريد ألا يضنى تفكيره أو يحمل ذهنه دروساً
لامعنى لها فى نظره .. بل يريد أن يمارس الحياة على هواه ووفق
ما يشتهى . وأن يقدم عليها إقداماً دون مراعاة لآى شيء .

فى الواقع أن هذه الحياة الباكورة لونسون تشرشل تعطينا
فكرة أن هذا الفتى سيقبل فى حياته على المغامرات التى شغف بها
عن أى شيء آخر .. فإن المدرسة كانت فى نظره ، منذ الطفولة
قيداً على حريته ، وكان تأثير تلك الأيام السوداء التى أمضاها فى
مستهل حياته فى تلك المدرسة التى كان ناظر المدرسة يسومه فيها
الضرب والإيذاء .. كان تأثير تلك الفترة عميقاً فى نفسه
كل العمق .

اتسمت حياته الأولى بالجيش بابتسامة الخطر له فقد تفوق
فى أول امتحان تمهيدى . وحالفه الحظ فى امتحاناته الأخرى التى
تلت ذلك .. وكان قد صمم على أن يتفوق .. وفى الليلة السابقة
للامتحان التالى ، كان يعلم بأن الامتحان سيكون عن رسم خريطة
من الذاكرة لإحدى البلاد وأن يدرج فى الخريطة جميع أسماء
المدن بها . وأراد أن يجرب حظه فوضع فى قبعته أوراقاً بأسماء
عدة بلاد . ثم طوى تلك الأوراق ، واختار واحدة منها وكانت

الورقة باسم نيوزيلند ، فامضى ليلة في حفظ خريطة نيوزيلند
ومدنها . . وما كان أشد دهشته إذ كان السؤال في الامتحان في
اليوم التالي عن نيوزيلند بعينها . . وهكذا وفق في رسم خريطةها
وبيان جميع مدنها على نحو رائع .
وهكذا يبدو أن الحظ أو الأقدار كانت تلعب دورها العجيب
في حياته .

وثمة حادث له مغزاه وقع له قبل التحاقه بكلية ساندهرست
العسكرية . . وتلك الحادثة تتم في معناها ومغزاها على طباعه
الملتزم بالعناد والإصرار ، كان ذلك وهو في الثامنة عشرة من عمره
تقريباً ، عندما توجه إلى بلده بورتسموث ليمضي فيها بضعة أسابيع
تبديلاً للهواء مع بعض أقاربه من أبناء عمومته وطائفة من الضيوف
وكان من بينهم إثنان من التلاميذ ، وكان ميالا إلى اللعب مع الفتيان
من التلاميذ والرغبة في معاكستهم . . وفي ذات يوم بينما كانوا
يطاردونه في الحلاء ، حاصروه في إحدى الأماكن بالقرب من
جسر معين وكادوا يطبقون عليه لإمساكه . . ولكنه أبى ذلك
وفضل أن يقفز من أعلى شجرة إلى منحدر يبلغ انحداره نحو
ثلاثين قدماً . . وكانت النتيجة أن نجا من حصارهم وإمساكهم به
ولكن ذلك كلفه غالباً إذ أصيب بتمزق في جنبه واقتضى ذلك
أن يلزم الفراش ردهاً من الوقت .

إن هذه الحادثة ، التي تدل على عدم التبصر والحكمة ، والتي تتم عن التهور بها جانب آخر في حياة ذلك الرجل ، فهي تدل أيضاً على أنه يكن لم ليرتضى أن يستسلم أو يقع في أيديهم . فهو بطبيعته مشحون بالرغبة .. ألا يقهر ، أو بمعنى أدق إن من طباعه الأساسية المقاومة حتى ولو كلفته هذه المقاومة كل شيء في سبيل ألا يستسلم . وفي فترة النقااة الطويلة التي أمضاها الفتى في بيته أتيح له أن يتصل اتصالاً وثيقاً بوالديه .. واستطاع الفتى كذلك أن يلم إماماً كبيراً بشخصية أبيه السياسية وأن يسمع منه الكثير عن مناوراته ومناقشاتة ومنازعاته السياسية والحزبية في البرلمان .. كذلك استطاع أن يتفهم الكثير عن سيرة السياسي البريطاني جلادستون والذي كان من ألد خصوم والده وقد وصفه بأنه رجل حقود خبيث كالوباء .

وهكذا تمكن ونستون تشرشل في تلك الفترة التي أمضاها مريضاً ملازماً بيته أن يقرأ الكثير وأن يطلع على الكثير في الشؤون السياسية التي كانت مستعرة في ذلك الحين بين الحزبين الكبيرين في بريطانيا كما تمكن أن يعي أكثر وأكثر من أحداث والدته التي طالما كانت ترددها في صالونات بيتها عن مختلف الشؤون .. وفي مكتبه والده ظفر الشاب ونستون تشرشل بقراءة كثير من الكتب التي اقتناها والده .. كما قرأ أيضاً بعض خطب

والده وكان من أهم مالفت نظره هذه العبارة التي جاءت على لسانه :
« إن الشباب قطعة من الجنون .. يكاد يحتاج كل شيء أمامه ،
ومضى الشاب ، الذي كان والده لا يراه أكثر من مغفل كبير وجاهل
أحمق في وقت ما يفكر أن يكون شيئاً يثبت عكس ذلك .

ولم يلبث والده أن مات بعد أن تخرج والده من كلية
ساندهرست .. ولقد اغتم والده حزناً إذ أن ونستون تشرشل كان
في ذيل الخريجين .. أي في مؤخرة الطلبة الناجحين .. ولم يكن يستحق
على هذا الوضع إلا أن يلتحق بسلاح الفرسان .. وكان الجيش
للفتى شيئاً بهيجاً ولكن سلاح الفرسان كان لديه أبهج وأمتع ،
فهو يهوى ركوب الخيل ، كما أن ملابس الفرسان تستهويه ..
وأحس في الوقت ذاته أن يستزيد من معلوماته العسكرية .

وفي ربيع عام ١٨٩٥ كان قد أنهى أيام الدراسة لينخرط في
سلك الجيش وكانت فرقته هي الفرقة الرابعة « الهوسار » المعسكرة
في آدرشوت .

تشرشل الجندى

بدأت فى المرحلة الأولى من حياة ونستون تشرشل ، معالم هذه الشخصية منذ نشأتها ، واتضح فى الخطوط العريضة لأخلاقه ونزعاته وأسلوب تفكيره الباكر .. بدأ ذلك فى الأيام السوداء ، التى عاناها فى دراسته الباكرة ، وكيف أنه كان فى مؤخرة الصفوف وكيف كان يعامله ناظر المدرسة الذى كان يضربه ضرباً مبرحاً لعدم اهتمامه بالدروس وخروجه عن المألوف ، وتماديه فى الاستهتار كما بدأ ذلك أيضاً فى عدم احتفاله بالدراسات التقليدية ونفوزه من اللغة اللاتينية . . وكذلك أفصح الحوادث التى سردها فى القسم الأول من هذا الكتاب عن معدن تفكيره فى معالجة الأمور حتى فى أثناء لعبه وهواه ، وكلها تم على أنه كان عنيداً فى تصرفاته لا يرتضى أن يتقهقر قط مهما كان الثمن .

هذه المعالم من شخصيته .. وهذه الصورة لحياة تشرشل الباكرة لا بد أن يتمثلها القارئ ملياً إذ أن الأحداث المثيرة التى تلت ذلك وتداخلت فى شخصيته بما اشتملت عليه من تناقضات وعناء وإصرار تفصح إفصاحاً واضحاً بمدى الدور الذى لعبه تشرشل فى توجيه

تلك الأحداث سواء أكانت تلك الأحداث في ميادين الحروب
أو ميادين السياسة .

التحق ونستون تشرشل بالجيش عام ١٨٩٥ وكان أبرز منصب
له في ذلك الحين في الميدان الحربى فى عامى ١٨٩٧، ١٨٩٨ وخرج
من التجارب التى مرت به بتأليف كتابين من أهم الكتب التى
وضعها وأبرزهما كتاب « حرب النهر » .

قام تشرشل فى خلال ذلك بدوره ضابطاً فى الجيش البريطانى
العامل فى آسيا وأفريقيا وأوروبا ، وجزر الهند الغربية . . .
وفى خلال الحرب العالمية الأولى وصلت رتبته فى الجيش إلى
« ليفتنانت كولونيل » .

وزادت التجارب التى مرت به فى تلك الأثناء من خبراته
وتطلعاته فى سنى الشباب الباكر . كانت فكرة الجندية لديه مجرد
فكرة جذابة استهوته . . ولكنه الآن فى سن الواحدة والعشرين
صارت صلته بالجيش أكثر من الاستهواء العادى ، بل هى صلة
قائمة على الحب العميق للحياة العسكرية . . ومن هنا تمكن تشرشل
فى أحداثه ، بعد أن لفت الأنظار إليه ، أن يتصل بالكثيرين
من القادة ورجال الجيش المبرزين ، ليس باعتباره ضابطاً عادياً
بل باعتباره شخصية عسكرية قوية لها تأثيرها ، ولها إلامها ولها

قدرتها واحتمالها وقد ساعدته الحوادث التي مرت به على أن يكون على صلة وثيقة بأولئك القادة الذين اتصل بهم .

كان متأكدا أنه دائماً يشهر سلاحه ، ولا يضعه في غمده قط . كان يهوى الحياة العسكرية لذاتها ، في الوقت الذي ركن فيه غيره من الضباط إلى حياة الدعة والخمول .

ولقد قال صديقه الحميم لورد بيركنهد عنه بعد ذلك بسنوات . إن هذا الرجل هو ابن هذا الجيل ، « وليس متخلفاً في تفكيره . كضابط عتيق النظرات ، تقليدي الصفات . . بل ضابط متطور التفكير يستهدف المثل العليا في الحياة العسكرية الحديثة » .

ولقد بلغ هيامه بالحياة العسكرية قدراً فائقاً يمكن أن نسميه بالأحلام ، أي أن حب الأخطار والمخاطرة كان يسرى في دمه ، وصار كما يقولون « يشيد القصور في الهواء » ، اشتياقاً لخوض غمار الحرب ومواجهة الأخطار والاشتراك في المعارك الدامية . أن نفسه تهفو إلى أن يكون ضابطاً حقيقياً وليس ضابطاً في المعسكرات الآمنة ، يرتضى الحياة ويقبل على الشراب والاستمتاع بالملذات الرخيصة والإكثفاء بالملابس العسكرية الزاهية .

ولقد سأل أحد الجنود ذات مرة وهو لا يزال برتبة الملازم عند كان في معركة أم درمان « هل أشبعت نفسك استمتاعاً بالمعارك

الدامية ؟ . . . وبعد ذلك بثمانية عشرة سنة بينما كان الجنود في
ساحة الفلاندر عند خطوط النار كان هو نفس السائل مرة أخرى
لبعض الجنود يقول « ألا تحب الحرب ؟ إن الحرب لعبة يجب أن
يمارسها المرء باسم الوجه » .

وبقدر ما كان يلقي في ساحة الحرب من الحوادث العجيبة
بقدر ما كان يتعلق بحياة الجندي إلا أنه مع ذلك كان يندد بأهوال
الحروب .. وهذا تناقض عجيب في حياة هذا الرجل ، فإنه هو ذاته
الذى يقول « ما قيمة الحياة إذ لم تكن مثيرة ، فأما أنه يندد بأهوال
الحرب ويقبل على خوض معاركها متلهفاً ، وأما أنه يبتسم
للمعارك ويندج فيها بكل طاقاته ثم يذكر أيضاً أنه يندد بأهوال
الحروب فشئ يكاد لا يدرك الإنسان معناه لأول وهلة . والتفسير
الصحيح لهذا التناقض الواضح بين النظرتين ، أن تشرشل كان يرى
الحرب في وقت ما ضرورة لا بد من خوضها ، ضرورة تلزمه
الأحداث على ممارستها وهو من أجل هذا لا يقبل عليها مرغماً بل
يقبل عليها وهو مؤمن بعذالتها وأنها الحل الأمثل في تلك الأحوال
وبالرغم من ذلك فإنه لا ينكر بشاعة وأهوال الحرب .

وليس أدل على حبه لخوض الحرب ، أو لاقتربة من ميادينها
أنه لم يكذب سمع وهو ملازم ثان في فرقة الهوسار الرابعة ، وكان

وقتشذ في سن الحادية والعشرين . . لم يكذ يسمع بنشوب حرب في كوبا حتى هفت نفسه أن تتاح له فرصة التوجه إلى ميدانها . ولو بصفته مراسلا صحفياً ، وكانت الصحافة هي هوايته المفضلة التي تؤثرها ، والتي يعتبرها من الأعمال التي تستدعي المخاطرة والكفاح سواء بسواء كحياة الجندي في صميم المعركة .

ولقد كان والده من قبل يرسل صحيفة الديلي جرافيك في خلال إحدى جولاته في جنوب أفريقيا . . ومن الصحيفة نفسها استطاع الابن أيضاً أن يحصل على تفويض منها بأن يبعث إليها رسائل عن الحرب في كوبا . . ومع أن الصحيفة لم تكن تدفع له أجراً يستحق الذكر ولكنه كان أفضل من لا شيء . . وإلى جانب ذلك فإنه كان سيظفر بإظهار اسمه مرة أخرى تحت عنوان « صحفي » .

وقامت في وجهه عقبة ، كان لابد له أن يذللها حتى يستطيع أن يقوم بالدور الذي عهد إليه كمراسل صحفي في كوبا . . كيف تقبل السلطات الأسبانية ذلك . . أما تشرشل فلم يعدم وسيلته ، بل لجأ إلى أحد أصدقاء والده وهو السير هنري ولف السفير الانجليزي في مدريد لكي يتوسط في تسهيل مهمته لدى الجنرال كامبوس قائد القوات الأسبانية في كوبا ضد الثوار الكوبيين ،

وهكذا رحب الجنرال كامبوس به ، وفي الوقت ذاته فإن الثوار أنفسهم أحسوا بأهمية الحركة التي يقومون بها لأن الصحافة الانجليزية بعثت من يمثلها لتتبع أطوار معارك الثوار ضد الحكومة الأسبانية المحتلة .

وارتضى تشرشل الحياة في كوبا ، كما يقول دائماً بأنه يقبل على المعركة بوجه باسم ، واحتفى الأسبانيون به ، بالرغم من أن الطعام الذي كان يقدم للجنود كان رديئاً وبالرغم من الحشرات المؤذية التي كانت تهدد الجنود دائماً وكانت المعارك بين الفريقين متقطعة .. وأحياناً يسود الهدوء بينهما حتى لا يكاد المرء يعتقد أن هناك نزاعاً بين الطرفين .. سوى بضع طلقات من هنا وهناك تقطع هذا الصمت المخيم

وقبل أن يرحل ونستون تشرشل من كوبا قلده الجنرال كامبوس ميدالية عسكرية الأسبانية من الطبقة الأولى تقديراً له .

عندما عاد تشرشل في ربيع عام ١٨٩٦ إلى لندن ، وجد المجتمع ، الانجليزى يستعد لاحتفال اليوبيل الماسى للملكة .. وكانت الطبيعة إذاك في أبهى حلالها ، وقد كان تشرشل قد قدم وفي

جعبته الكثير من الروايات والمغامرات التي صادفها في هافانا والأنباء الكثيرة على الكوبيين وأسلحتهم ووسائل مقاومتهم للأسبان . . كل هذه الأشياء كانت مادة خصبة استغلها تشرشل في أحاديثه التي رواها بعد قدومه وفي مذكراته التي كتبها وفي مقالاته التي نشرها في تلك الفترة من حياته .

وكان تشرشل في الانتظار للإبحار مع فرقته « فرقة الهوسار الرابعة » إلى الهند لتحتل معسكرها في « بنجالور » عاصمة إقليم ميسور وكان من المقدر أن تظل هذه الفرقة في الهند بضع سنوات .

ولكن هذه الحياة العسكرية التي سبق لها عليها لم تكن لتستهويه فلقد كان يرى في الحياة العسكرية ، رأياً مخالفاً ، ليست هذه الحياة المترفة المعالية الروتينية التي يحياها الضباط الانجليز في المستعمرات . لا هم لهم سوى لعب البولو والتردد على الأندية والثرثرة . . إن الحياة الجندية لديه هي هذه الحياة التي تكون في الميادين . وفي الخنادق . . وفي المعارك . ولقد اكتشف أن الضباط الانجليز « الفرسان » في الهند لا يعيشون إلا شيء واحد هو « البولو » ولا شيء غير ذلك قط . حياة عاطلة من كل شيء وليس فيها ما يستهوى إلا العقل البليد والجسم الخامل .

عند ما كان في بلاده ، كان قد بدأ يفكر في شئون المجتمع وفي المسائل الدولية في عمق واهتمام . . فلما توجه إلى الهند بدأ

يقرأ ويعكف على الاطلاع بدلا من الانصراف إلى لعبة البولو
فانصرف إلى قراءة التاريخ والفلسفة والعلوم .. قرأ لجيون
وماكولي وداروين ومالتس وشوبنهاور وأفلاطون .. وكان هذا
الاطلاع يعتبر شيئا عجيباً بالنسبة للضباط الانجليز الذين اشتهروا
بالخمول في تلك المستعمرات التي كانوا يجدونها واحة للاستمتاع
بالمملذات واللهو الفارغ واشباع نزواتهم في الاستعلاء والسيطرة .
بينما عقولهم جوفاء فارغة .. أما هو فمضى يتزود بتلك المعارف
عساه يثقف نفسه بنفسه بعد أن أدار ظهره للجامعة وبعد أن
كان فشله في دراسته الأولى ظاهرة بينة .

وكان تشرشل قد صمم أن يدرس ويتثقف وأن يتفهم ما يقرأه
وأن يحقق ما يروقه في القراءة عملاً وفعلاً كانت تلك هي التجربة
الحقيقية لعقلية «مغفل هارو الجاهل» ليثبت من نفسه شيئاً ، وليس
بمجرد ضابط عاطل من الثقافة الذهنية بأوسع مداها وآفاقها .

وكانت رحلته الأولى — في الإجازة — من الهند فرصة
ذهبية له إذ أتاحت له التعارف على بعض الأصدقاء الذين اعتز بهم
إعتزازاً كبيراً في مستقبل حياته . فبينما كان على سطح السفينة
التقى بأياز هاميلتون وأخذا يتداولان ملياً في الأخطاء والحسنات
الخاصة بحرب البلقان الأخيرة .. وكان توافقهما عجيباً في
نظرتيهما المشتركة إلى الحياة العسكرية ومعانيها ورغبتيهما المتأججة

في النزوع إلى حب المخاطرات والولوع بالمغامرة . . بيد أنهما كانا في اتئامهما الحزبي على طرفي نقيض، فبينما كان تشرشل يناصر وجهة نظر حزب التوري في مساندة تركيا، كان هاميلتون يناصر وجهة نظر حزب الأحرار في معاضدة اليونان . وثمة صديق آخر التقى به وتوطدت صلته معه في أثناء رحلته إلى لندن أيضاً، هو سير بيندون بلود، وكان من القواد اللامعين . . وازدادت هذه الصلة توثقاً بعد ذلك . وكان محور توافقهما حبهما المشترك للمغامرة في ساحة القتال والتلف إلى المعارك . . ولقد حدث في السنة التالية من تعارفهما وفي شهر يوليو بينهما كان تشرشل في أجازته متجهاً إلى لندن، إذ وافته الأنباء بقيام ثورة إقليم باثان في الهندالايا . . وأن الحكومة البريطانية أوفدت لإخمادها حملة على رأسها سير بيندون بلود .

ولم يكف تشرشل يعلم ذلك، حتى أ برق إلى صديقه سير بيندون يذكره بوعدته بأن يشتركاً سوياً في المعارك، وظل تشرشل ينتظر الرد على برقيته عند كل ميناء ترسو عليها السفينة التي تقله إلى إنجلترا وأخيراً وصلتته رسالة في بومباي تفيد بأنه يرحب بقدم تشرشل كضابط مراسل حربي . وكان هذا الإجراء يعتبر من الإجراءات غير المعتدة في تلك الأيام .

واستطاع تشرشل أن يتعاقد مع إحدى الصحف الهندية الهامة

وتدعى « الله آباد بيونير » لموافاتها بالأنباء اللازمة كما تعاهد من قبل مع صحيفة ديلي جرافيك من قبل أثناء وجوده في كوبا . كذلك اتصل تشرشل بوالدته التي تمكنت بدورها من مقابلة المختصين في صحيفة ديلي تلجراف اللندنية وعهدت إليه هذه الصحيفة بموافاتها بالأنباء الحربية . واستطاع تشرشل أن يظفر بنجاح باهر بظهور تحقيقاته الصحفية التي احتلت عنواناً مشيراً عن « قصة معارك مالا كاند » .

ولقد تناول تشرشل بالتعليق فيما بعد المشقة التي يلقاها المراسل الصحفي في هذا الشأن بقوله « أنه من الأسهل على الإنسان أن يصنع الأنباء بنفسه من أن يحصل عليها ... أن يكون المرء ممثلاً أسهل عليه من أن يكون ناقدًا ... » .

كان تشرشل دائماً كصحفي يتخذ هذا الشعار : استفد من كل الإمكانيات والفرص كضابط حربي ، أو كعضو في البرلمان للحصول على الأنباء واستقائها . . ثم قم بتحريرها بعدئذ فهي ولا شك جديرة بالاهتمام . . وكان من الصعب على المرء أن يفرق في وادي ما ميند بمنطقة الهيمالايا بين تشرشل الملازم الثاني بفرقة الهوسار الرابعة وفرقة المشاة الحادية والثلاثين بالبنجاب وبين تشرشل المراسل بصحيفة بيونير الهندية وديلي تلجراف اللندنية . فقد كانت كل وظيفة تخدم الأخرى ! وقد جاء في أحد التقارير

العسكرية عن المجهودات التي قام بها كمراسل صحفي للحصول على الأنباء . أنه كان يقوم بواجبه على نحو مشير في المواقف الحرجة الدقيقة .

وفي الحقيقة فإن هذا ليدل دلالة أكيدة على أن تشرشل عرف كيف يستغل عمله كضابط في خدمة الصحافة وأن يعود عليه ذلك بالرجح المادى . وأن يشبع في الوقت ذاته رغبته الأصلية في حب المغامرات أنه في الحقيقة ضابط من طراز عجيب !

ولقد أمضى تشرشل في هذه الحملة عدة شهور ، وسط الجبال والوديان وليس ثمة شك أن وجوده في تلك المنطقة النائية اكسبته خبرات وتجارب جمة في الاحتمال ، والتجلد ، وخاصة أن الإنجليز كانوا يحاربون ثواراً يعرفون طبيعة بلادهم ويدركون تمام الإدراك شعاب الجبال والوديان أكثر من أعدائهم المستعمرين الإنجليز وهذا مما زاد من الإضناء الذي عاناه تشرشل في تلك الأيام . . . ولكن هذه المعاناه أفادته صقلا في دراسة نفسيات ذلك العدو ، بل أنه كما قيل لم يتمالك أن يبدى إعجابه بأولئك الثوار .

وكان هذا أيضاً سبباً في ظهور تشرشل ككاتب ، لاذع وناقد جريء ، حتى لقد نال كتابه الذي نشره عن تلك المعركة الدائرة في منطقة الهيمالايا بالهند إقبالا عظيما ، وجاء رواج ذلك الكتاب دليلا قويا على مدى قدرته في إيراد الحوادث وسردها على نحو يهز

المشاعر ويبعث على الاهتمام . ولم يقتصر الأمر على رواج هذا الكتاب فحسب ، بل نال تقديرًا فائقًا ، حتى أن برنس أوف ويلز وهو ولي عهد إنجلترا بعث إليه برسالة يسجل فيها إعجابه بمؤلفه . وكان هذا حافزًا لتشرشل الشاب الذي كان وقتئذ في الثانية والعشرين من عمره للاعتزاز بذلك . . . وكان هذا أيضاً يعتبر بالنسبة له خطوة كبيرة في طريق النجاح .

وحتى يمكن لنا أن نقدر وقع هذا في نفسه ، يمكننا أن نذكر بأنه كان يعلم بأنه كان تلميذاً فاشلاً وأن نجاحه في كلية ساند هرست كان نجاحاً بدرجة ضعيفة جعلته في مؤخرة الناجحين ، وأن والده ذاته كان يائساً أو مستسلماً للأقدار بأن ولده ونستون تشرشل على هذا الحظ من الكفاية وارتضى هذا الواقع وتقبله .

فإذا به يرى نفسه ، وقد صار « نجماً » وأنه « نجح » في مهمته الصحفية كضابط حربي ، وأن كتابه « قصة معركة مالاكاندا » قد لقي إقبالاً ورواجاً كبيراً وأن ولي عهد إنجلترا بعث إليه برسالة تقدير .

كل هذه الأمور أحييت الثقة في نفسه . ولكن الغرور لم يداخله بل صمم على أن يمضي قدماً .

إن شخصية تشرشل في هذا الحين تبلورت على نحو نستطيع

أن نجمله في أنه رجل أقرب اتصالاً بالصحافة من كونه جندي مقاتل،
صحيح أنه صحفى من طراز عسكري يحد بغيته في ميادين الممارك
الحرية ولكنه أبعد من أن يكون ضابطاً بالمعنى التقليدي لهذا الاسم.
فإن الحوادث التى تلت ذلك تؤيد وجهة النظر هذه، فقد حدث
أن قامت فى ذلك الحين معركة أخرى فى الهند بين إنجلترا المحتلة
وبين قبائل الأفريدي المشهورة بالبأس وشدة المراس. وكان
طبيعياً أن تتغلب الروح الصحفية المغامرة على تشرشل أن يسعى
للاضمام إلى الحملة العسكرية التى رتبها إنجلترا للقضاء على حركة
القبائل الأفريديية الثائرة. إن من وجهة النظر العسكرية البحتة،
لم يكن فى استطاعة أى ضابط فى أى جيش أن يفكر بهذا المنطق،
فعندما اندلعت الثورة فى كوبا ضد الأسبانيين بذل مساعيه حتى سافر
إلى كوبا، وعندما نشبت المعركة بين الثوار فى الهند لم يهدأ حتى
ظفر بأن يكون مراسلاً حريباً لصحيفة بيونير الهندية والديلى
تلجراف اللندنية.. وها هى معركة جديدة تلوح فى الأفق.. معركة
القبائل الأفريديية التى جردت لها الحكومة الانجليزية حملة تأديبية
يقودها قائد من أمهر قواد إنجلترا وقتئذ هو السير ويليام لوكهارت
ليخوض المعركة المعروفة باسم « وادى تيراه ».

إن هذه المعركة هى الآن من الوجهة الصحفية تحتل فى الصدارة
المكان الأول بعد أن تضاءلت المعركة الأولى أو كادت تختمد.

وقلت أخبارها واستوفاهما تشرشل في كتابه الذى ألمعنا عنه .
ولم يعد فيها مزيد من الكلام عنها .

واستطاع تشرشل بمعاونة صديقه ايان هاميلتون وهو الرجل
الذى اشترك فى معركة غاليوبولى بعد ذلك بثمانية عشرة سنة ،
استطاع تشرشل أن ينال قبول قائد الحملة السير وليام لوكهارت
على أن يصحب تشرشل فى الحملة التأديبية . . وجاءت هذه الموافقة
بعد أن كان قائد الحملة قد رفض طلبه فى بادىء الأمر ، بيد أن
تشرشل لم يجد فى هذه الحملة ما يرضى طموحه ، فان معاركها ما لبثت
أن خمدت وعاد تشرشل يعانى السأم من جديد .

وفى ذلك الحين كانت الأنباء تتوالى من أفريقيا عن أحداث
السودان . . وكان تشرشل يتوق إلى أن يكون له نصيب فى هذه
المعارك فهو يذكر أنه عند ما كان فى العاشرة من عمره أن
والده حمل حملة شعواء فى مهاجمة جلا دستون عن المصير الذى
لحقه الجنرال غوردون فى السودان ، وألقى تشرشل فرصته
السانحة فى هذه المناسبة ليشارك فى معارك السودان مع الحملة
الإنجليزية الاستعمارية ، وكان المهدي قد مات وتولى خليفته
زمام الأمر .

وكان لورد كيتشر يعارض فى قبول تشرشل بين أفراد الحملة ،

ولكن تشرشل كان يستعين بوالدته — كما استعان بها من قبل — وكذلك أصدقاؤه في تحقيق مآربه وكذلك كان كتابه الذى أصدره قصة معارك ماكالاند ، كل هذه الأطراف كانت تؤازره وكان السبب الذى يدفع ككتشنر إلى معارضة قبوله ، ما نشره من قبل فى انتقاد القواد البريطانيين وتطاوله عليهم وسخريته من بعض الأساليب المتبعة فى الجيش البريطانى .

وفى ذلك الحين ، كان تشرشل فى أجازته بلندن وكان اللورد ساليسبورى هو رئيس الوزراء وقتئذ ، وكان قد سبق له أن قرأ كتاب تشرشل وأعجب به فلما انتهت إليه رغبة تشرشل الملحة فى الاشتراك فى حملة السودان ، دعاه إلى مقابلاته ، ودار بين الإثنين حديث طويل وانتهى برجاء وإلحاح من تشرشل أن يبذل اللورد ساليسبورى نفوذه لدى السردار ككتشنر ليرجع فى قراره .

فأرسل ساليسبورى برقية مهذبة رقيقة إلى ككتشنر يرجوه فيها قبول تشرشل فى الحملة ، ولكن رد ككتشنر كان متقضياً وجامداً لا يحمل إلى كلمة واحدة هى « كلا » .

ولكن تشرشل لم يداخله اليأس ، فمضى يجرب مسعاه عن طريق آخر ، وذلك بتأثير والدته اللادى راندولف على السير افلىنى وود القائد البريطانى ، والذى كان يلى ككتشنر فى منصبه ،

فقام الرجل بحل وسط وهو أن يذهب تشرشل إلى السودان ،
كمراسل حربي - ولكن دون أى ارتباط أو تبعة للحكومة
البريطانية نحوه في حالة إصابته بأى حادث ، وكذلك دون مرتب
واتصل تشرشل بصحيفة المورنج بوست فعينتته مراسلا لها في
السودان .

ومضى منتصراً بتحقيق غايته إلى السودان ولم يكن معنى هذا
أنه فقد صفته العسكرية بل اعتبر من رجال الفرقة ٢١ الخيالة .
ولكن الطريق لم يكن مفروشاً بالورود أمامه ، فان لدعائه
ومضايقاته التي بدت في كتاباته السابقة كانت لها أثرها في نفوس
الضباط ، وفي الوقت ذاته فان المهام التي كانت ملقاة على عاتق
كتشنر ، كانت أكبر بكثير من أن يشغل تفكيره في أمر
هذا الشاب .

وكانت المعركة الحاسمة على الأبواب ، وكانت الحملة الانجليزية
قوامها نحو ٢٠ ألف جندي يواجهون أكثر من ٦٠ ألفاً من
ال دراويش ، وكانت حرارة الشمس في أوجها في ذلك اليوم
التاريخي يوم ٢ سبتمبر عام ١٨٩٨ . ودار القتال رهيباً بين الفريقين
وكان الدراويش يقاتلون باستماتة ويذكر تشرشل في مذكراته بأنه
قتل بمفرده ستة من الدراويش وهو على صهوة جواده . . بينما

كان الدراويش يخوضون المعركة بسيوفهم المشهورة أمام عدوهم الذى تسليح بالبنادق والمدافع .

ومن عجائب الأقدار — وهى التى لعبت دوراً هاماً فى حياته دائماً — أن زميله الملازم ثانى جرنفل الذى حل محله فى فرقته التى سافرت قبل قدومه إلى السودان لقى حتفه فى تلك المعركة كما تمزقت الفرقة ذاتها بالخسائر الفادحة التى أصيبت بها فى تلك المعركة . وكان من نتائج هذه الحملة لدى تشرشل أن أصدر كتابه « حرب النهر » فى مجلدين كبيرين . وكسائر مؤلفات تشرشل الأخرى ، قام بتسجيل كافة انطباعاته وتجاربه ومشاهداته عن تلك الحملة وقد ذكر صراحة أن عدد الأسرى من الدراويش كان قليلاً جداً ومعنى هذا بوضوح أن عدد القتلى كان كبيراً . وهذا يدل على أن قائد الحملة كان يرضيه هذا الاجراء إذ أن الجماهير فى إنجلترا كانت تنادى بأخذ الثأر من مصرع الجنرال غوردون ، وعلى هذا فان رجال الحملة الانجليز كانوا ينظرون إلى أعدائهم ، نظرة خالية من روح الجندية بل هى أقرب ما تكون إلى أن العدو الذى يلاقيهم هم من مرتبة أدنى ولقد حمل تشرشل على بدمير مقبرة المهدي وعلى التمثيل بمحنة المهدي ، إذ ألقيت جثته فى النيل ، وحملت رأسه إلى لندن كعلامة للانتصار ! وذلك بأمر ككتشنر ذاته .

ولقد أبدى تشرشل امتعاضه وتنديده بهذه الفعلة بقوله : وإن
هذا العمل الدنيء مثير للاشمئزاز . . .
وبعد أن انتهت معركة أم درمان ، ترك تشرشل خدمة الجيش
العامل ، بالرغم من نصيحة السير افليني وود . . . وكان السبب في
ذلك يعود إلى عاملين ، عامل مالى وآخر سياسى . فإن الصحافة
كانت تجتذبه وليس ثمة ريب فى أن المال الذى يمكنه أن يحصل
عليه منها أكثر بكثير من الجيش . . . وكذلك كان يبدو له أن حياته
فى الميدان السياسى ، ستكون أوفى حظاً .

فهل كان تشرشل يفكر تفكيراً مجرداً من الهوى عن حقيقة
نفسه ؟ من المؤكد أن أطباعه ، أن يكون شخصية بارزة وأن
يحقق الآمال الواسعة التى يصبو إليها لم تكن تتحقق له بأية حال من
الأحوال فى نطاق رتب الجيش العسكرية . . . ومن المؤكد كذلك
أن الجيش بالمعنى التقليدى لم يكن يحتمل شخصية كشخصيته . . .
ولكنه فى الوقت ذاته لم يكن قد فعل الكثير . . . سوى تأليفه
كتابين وعدة مقالات نشرتها له الصحف . . . وعلى أية حال فإن
مستقبله يبدو أكثر أملاً فى المحيط السياسى وفى ميدانه ، ولا بد له
أن يخوض المعارك السياسية ، ليحرب حظه وليرضى غريزة حب
المجادلة التى تثور فيه .

وكان تشرشل قد تحرر من الجيش ، وكان يتكسب من

وراء كتاباته آلافاً من الجنيهات ، وكان اسمه قد أخذ في الذيوع والانتشار بعد أن كتب عن أمريكا وآسيا وأفريقيا .

حرب البوير

وجاءت حرب البوير بجنوب أفريقيا .

وكان الرأى العام فى انجلترا يقدر بأن هذه الحرب ستنتهى فى خلال ثلاثة شهور وأنها لن تكلف أكثر من عشرة ملايين من الجنيهات ..

ولكن حرب البوير ظلت نحو ثلاثة أعوام وكلفت انجلترا أكثر من مائتى مليون جنيه ..

وهكذا كانت تقديرات وزارة الحرب البريطانية بعيدة من الصواب .

وكان الضباط المحترفون يرون أن الأعداء من البوير ليسوا سوى فئات من الهواة .

وأقلع ونستون تشرشل على نفس السفينة التى كانت تحمل السير ردفردز بولر القائد البريطانى . وكان تشرشل فى هذه المرة أيضاً مراسلاً حربياً . وعندما وصلت السفينة الحربية التى تقل تشرشل كانت قوات السير جورج هوايت قائد الحملة قد أودى بها رجال البوير فى « مثلث ناتال » .

وكان لابد لتشرشل أن يكون في المعركة ، حتى يستطيع أن يبرق بأنبيائها فألقى بنفسه فيها ، مختاراً أحد القطارات الحربية المكتظة بالجنود والمؤن والذخائر . وكان تشرشل في حالة من المرح وهو يستحث الوقت للوصول إلى الميدان . . . فإذا بالقطار يقف فجأة بعد أن ضرب رجال البوير الخط الحديدي . . . ومضى تشرشل يثير عاصفة بين الجنود ، وخاصة سلاح المهندسين قائلاً : « إن المرء لا يصاب مرتين في يوم واحد » .

ولكن القطار الحربي ظل قرابة ساعة هدفاً للنيران . واستطاع بعض وحدات الجيش الميكانيكية أن تنجو وأن تنسحب إلى بلدة استكورت ، تاركين تشرشل وباقي رجال البحارة الحملة وراءهم . وكان الشخص الذي أسر تشرشل من البوير هو لويس بوتان . وكان بوتان في ذلك الحين لا يعدو أن يكون مجرد مقاتل ريفي عادي ومن غرائب الأقدار ، أن نشهد بعد ذلك بثلاثة أعوام أن يكون بوتان هو الذي يتكلم في لندن بإسم شعب البوير وأن يكون تشرشل المتكلم بإسم بريطانيا وأن يرتبط الاثنان بعد ذلك بصداقة وطيدة وأن يشترك تشرشل في التسوية التي وضعت للحكم الذاتي لاتحاد جنوب افريقيا .

وعندما أسر تشرشل ، عامله رجال البوير معاملة رقيقة ، ولم يشاءوا أن يعاملوه كعدو ، بل كرجل عسكري وعلى هذا فقد وضع

في السجن . . بينما كان هو يصر على معاملته كدني ، ومن حسن حظه أن عامله البوير كعسكري إذ وضع سجيناً في بريتوريا ، وكانت الحراسة عليه غير مشددة على النحو المتبع في السجنون المدنية مما أتاح له فرصة الهرب . ولم يكن لديه ما يفعله في خلال مدة الأسر سوى أن يناقش ويجادل غيره من الأسرى وأن يمضي بقية الوقت في لعب الورق ، وفي تدبير المؤامرة للهرب . . . ثم لم يلبث أن استطاع الهرب بمفرده بأن تسلق جدران السجن ثم مضى على قدميه مخترقاً بريتوريا حتى صادفه قطار بضاعة فوثب إليه . . ثم مضى في طريقه لا يعرف أين يذهب . . ومضى عليه نحو يومين وهو يضرب في فجاج الأرض حتى لمح بيتاً على الطراز الانجليزي ، فطرقه ، وكان المنزل لرجل انجليزي هو جون هوارد وكان يعمل مديراً لأحد المناجم وحيث لقي عنده أحد أصدقائه القدامى المستر ديو سناب وتمكن تشرشل من الخروج متشكراً لبيعته برسائله الحربية إلى صحيفته في لندن بعد أن قاسى ألواناً مروعة من المشاق ، في سبيل تحقيق سبقه الصحفي .

أما الشوار البوير فقد رصدوا مبلغ ٢٥ جنيهاً لمن يأتي به حياً أو ميتاً بعد أن أذاعوا أوصافه في كافة الأرجاء . . وكان لآثر فراره من الأسر هزة من الفرح شملت ناتال ومدينة الكاب وبريطانيا وأخذ الناس يتحدثون عن بطولته . . بينما مضى هو أيضاً ينشر

في صحيفة المورنج بوست حقيقة الموقف الحربى ، دون أن يبالي
بإستياء بعض رجال الجيش وكانت انتقاداته موضع الاعتبار لدى
أولئك الذين أدركوا معنى دعوته فى سبيل الاستقرار . بعد وصوله
إلى إنجلترا .

لقد كانت حرب البوير تجربة مريرة لإنجلترا كلفتها غالباً
وخاصة بعد أن حاصر البوير - مدينة لادى سميث وماينكنج ،
ولولا المساعدات القيمة التى أمدت بها المستعمرات البريطانية
لأنجلترا فى ذلك الحين لكانت خسائرها أفدح . . ولم يعلن السلم
وانتهاء حرب البوير إلا فى أول يونيو عام ١٩٠٢ ، وكانت المملكة
هكتوريا قد ماتت قبل ذلك فى ٢٢ يناير عام ١٩٠١ ولقد قيل أن
الخسائر التى منيت بها بلادها حزت فى نفسها فسادات صحتها . . .
بسبب اندحار جيوشها فى جنوب افريقيا .

وعاد تشرشل مرة أخرى إلى جنوب افريقيا ، بعد أن استقر
السلم ، وبعد أن كان قد هرب من الأسر قبل ذلك بسبعة شهور ،
وكان من أوائل الذين دخلوا مدينة لادى سميث بعد استردادها ،
ثم توجه إلى يريتوريا ليطلق بنفسه سراح اخوانه الأسرى الذين
تركهم بعد فراه من الأسر .

وقد تولى تشرشل منصبه فى وزارة المستعمرات فى حكومة
السير هنرى كامبل بانرمان (من عام ١٩٠٥ - ١٩٠٨) وتولى

بنفسه شرح سياسة كامبل في مجلس العموم تجاه المستعمرات وحتى في خلال الأزمة الخاصة بحرب جنوب أفريقيا كان له وجهة نظر متحررة في كيفية معاملة البويراً وسياسة الحكم الذاتي للترنسفال ومستعمرات نهر أورانج ، داعياً إلى اتحاد جنوب أفريقيا ، بطريقه ماهرة دلت على بعد نظره السياسى ودهائه أمام خصومه من المحافظين الجامدين وما لبث أن تولى مركزه وزيراً للتجارة عام ١٩٠٨ فقام بعدة اصلاحات جوهرية في انعاش تجارة انجلترا وخاصة مع غيرها من الدول ونجح في هذا المضمار نجاحاً كبيراً .

وأخذ نجم تشرشل يتألق في عالم السياسة معتمداً في ذلك على بلاغته الخطابية ، وتدقيقه وحيويته التى كان يستطيع بهائريك وتجميع الرأى العام حوله . . فلقى نجاحاً متصلاً في أثناء مناقشات مجلس العموم لمختلف المسائل والأحداث .

حادثة أغادير

وشاءت الأقدار — التي طالما لعبت دورها في تألق نجم تشرشل — أن تقع أزمة أغادير عام ١٩١١ .. أو على وجه التحديد في يوليو عام ١٩١١ عند ما انطلقت إحدى سفن ألمانيا الحربية « بانثار » إلى ميناء أغادير على الشاطئ المراكشي .

وكأنما كانت هذه الأقدار تعدها لهذا الحادث لينال إسم تشرشل مزيداً من الشهرة .

وكانت ألمانيا تسعى إلى أن يكون لها موطئ قدم في البحر الأبيض المتوسط ، وكان الجو الدولي ينفىء بأن ثمة أحداث مقبلة وكان المستر لويد جورج قد أطلق تحذيره لألمانيا في إحدى خطبه عن النتائج الوخيمة إذا لم تستدع سفينتها الحربية من أغادير . . . وكان الفرنسيون الذين يحتلون مراكش يتطلعون إلى انجلترا لمعاونتها في أزمتها مع ألمانيا . بيد أن لويد جورج أراد أن يجرب الوسائل الدبلوماسية مع ألمانيا في حل هذه الأزمة معتقداً بأن هذا الأسلوب أجدى وأحسن .

ولكن تشرشل كان يختلف في وجهة نظره عن لويد جورج ، إذ كان يعلم مطامع ألمانيا ، وأن الأسلوب الدبلوماسي لن يؤدي إلى

نتيجة وأن ثمة علامات ونذر تبدو في الأفق البعيد . أن الحرب مع ألمانيا ليست شيئاً ممكناً بل هي آتية حتماً . وأن واجب إنجلترا أن تستعد لهذه الحرب الحتمية، وأن ألمانيا قد أعدت أهبتها للحرب وأنها الآن تتحرش بفرنسا .

وكان رئيس الوزراء اسكويث يرى هذا الرأي أيضاً . . . ويؤمن أن طبول الحرب قد أخذت تدق .

ومن أجل هذا دعا اسكويث مجلس الدفاع القومي للاجتماع في اسكتلندا لتدارس الأمر في أكتوبر عام ١٩١١ بينما العبارات « قوة ألمانيا .. أطماع ألمانيا .. جيش ألمانيا المجهز .. أسطول ألمانيا ، عملاً أعمدة الصحف كل يوم

ولكن حدث في ذلك الحين أن وقع اختلاف في الرأي بين الاميرالية البحرية وبين مجلس الحرب عن مدى إمكان التعاون بين أسلحة الجيش .

وأخيراً اتفق الرأي ، عملاً بوجهة نظر تشرشل « أن يكون الأسطول على أهبة الاستعداد في اللحظة التي تقوم بها ألمانيا بالهجوم ، .

وتلك كانت الخطة التي يريدونها والتدبير الذي ينشده حتى لا تؤخذ بلاده على غرة .

ومع أنه أمكن تفادى الإلتحام بين إنجلترا وألمانيا فإن إنجلترا أيقنت أن ساعة الحرب مقبلة لا محالة ولهذا فقد أسند اسكويث إلى تشرشل منصب اميرالية الأسطول ليجعل هذا الأسطول على أهبة الاستعداد عند وقوع أى هجوم ألماني كما أسبقنا ، أما السبب في اختيار تشرشل في هذا المنصب فيعود إلى الأزمة التي وقعت بين مجلس الحرب البريطاني والاميرالية البريطانية المتعلقة بالاستراتيجية التي يجب اتخاذها في حالة الحرب .. فقد قال هالدان في مجلس الحرب بأنه سيقدم استقالته من المجلس ما لم تقبل الاميرالية السير وفق خطط المجلس .. وكاد الامر يستفحل لولا أن اختار تشرشل لمنصبه الجديد لإيجاد التوافق بين السلطتين .

ولم يكد تشرشل يتولى زمام منصبه حتى مضى يزود السفن الحربية بمزيد من المدافع الحديثة من العيارات المختلفة ويضيف إلى الأسطول المزيد من القطع الحربية ، وكان يؤمن بأن ساعة الحسم بين إنجلترا وألمانيا تلوح في الأفق وأن الواجب الأول هو الاهتمام بالأسطول وتجديده مهما كلف ذلك من عناء ومال ومعارضة . وكان أول مافعله تشرشل في هذا الشأن الاتصال بفيشر الذي كان القائد الأول للأسطول والذي استقال قبل ذلك من خدمة البحرية منذ عام تقريباً ، وكان تشرشل قد التقى بفيشر قبل

ذلك في خلال أجازة له ببياتريز عام ١٩٠٧ وارتبط الاثنان بمودة وثيقة وكان فيشر عندما التقى به يبلغ السبعين من عمره ، وكان تشرشل في الثالثة والثلاثين . . وقد أمضيا في يوم تعارفهما ليلة بطولها يتحدثان عن أبحاد الأسطول وعن أيام نلسون الخالدة في تاريخ البحرية . . وألقى الاثنان أن كلا منهما يفهم الآخر ويتحدثان بلغة واحدة . . كان الأول كالنبيذ المعتمق والآخر كالنبيذ الجديد يحسن مزجهما . . وقد تجدد حديثها بعد حادثة أغادير ، إذ رأيا في هذه الحادثة حافزا بضرورة إعادة النظر في أمر الأسطول بعد أن مضت ألمانيا في تعزيز قواتها البحرية لانتزاع سيادة البحار من إنجلترا . . واتخذ تشرشل من فيشر مستشارا غير رسمي في شؤون الأسطول عند بدء الإصلاحات الواسعة التي قام بها لتجديد شباب الأسطول وتدعيمه .

ولم تمض سوى بضع شهور على تولى تشرشل مهام منصبه في الاميرالية البريطانية حتى بدأ الأمر يختلف . . هزات عنيفة تليها هزات أعنف ، لتخليص الأسطول من ركوده وتخليفه وتزويده بالعتاد والأسلحة وإضافة قطع جديدة إليه . وبالرغم من تهكم بعض القدامى من السياسيين على تشرشل ومنهم لورد شارلز برسفورد الذي انبرى في البرلمان يندد بأساليب تشرشل . فإن اسكويث كان

يعلم جيدا الدور الذى يقوم به تشرشل فلم يعر الاعتراضات المنبعثة من المدرسة القديمة أى اهتمام .

وفى خلال صيف وخريف عام ١٩٢١ كان تشرشل يمضى أيامه على ظهر يخت الاميرالية « انشانتوس » وكان يحس بحاسة الإدراك أن رائحة الحرب تقترب . . ففضل أن يكون على مقربة من الأسطول ليشهد بعينه كل يوم التغييرات المستمرة المستحدثة فى البحرية البريطانية . . بينما اليخت ينتقل به من ميناء لآخر .

وفى أوائل العام الجديد ، توجه إلى مالطا مع رئيس الوزراء ليتناول بالبحث مع اللورد كتشنر الخطط المتعلقة بالدفاع الحربى .

وكان قد تصافى مع كتشنر بعد حملته عليه بسبب انتهاكه لمقبرة المهدي فى السودان .

ولم يكد العام ينتهى حتى كان التناسق والتوافق كاملا بين أسلحة الجيش بعد التنافر الذى كان يسود بينها .

وبينما كان تشرشل مشغولا بتدعيم الأسطول البريطانى ، وقد لاح شبح الأزمة الايرلندية . إذ به يطالع فى الصحف خطبة امبراطور ألمانيا الذى قال فيها « إن مزيدا من السفن ستضاف إلى الأسطول الألمانى ، وكان تشرشل إذ ذاك فى جولة له متعلقة

بالأسطول في ميناء بلفاست فلم يتمهل حتى يصل إلى لندن بل رد على الفور على خطاب الامبراطور قائلاً : إن الأسطول العظيم بالنسبة لنا ضرورة أما لألمانيا فيعتبر لونا من ألوان البذخ . فهو ضرورى لوجودنا . . وهو إسراف لهم .

وهاجت الصحف الألمانية على هذا التعبير « الوقح » الذى أدلى به باعتبار أن الأسطول الألمانى شئ من الترف ! ولكن تشرشل لم يتزحزح عن موقفه ، بالرغم من أصوات المعارضة ، بضرورة الاهتمام الكلى بالأسطول لأنه الوسيلة الوحيدة لإبقاء إنجلترا متفوقة وعلى قيد الحياة .

وهكذا شهدت سنة ١٩١٣ مزيدا من الاهتمام بالأسطول ومزيدا من تزويده بالمدافع بعد أن مضت ألمانيا فى إمداد سفنها الحربية بأنواع جديدة من المدافع وفى شهر مارس عام ١٩١٤ عندما عرضت ميزانية الأسطول وكانت تحوى أرقاما خيالية زيادة عن سابقتها ارتفعت من جانب بعض أعضاء حزب الأحرار الاحتجاجات على هذا الإسراف ولكن الحكومة أجابت على ذلك فى مجلس العموم بكلمة قاطعة : « أننا لا نشعر بأننا نؤدى واجبا إزاء الوطن إذا فعلنا غير ذلك » .

لقد كانت ثقة تشرشل المتزايدة بنفسه سبباً فى تكاثر خصومه

عليه في مواقف كثيرة . وكان هذا من أسباب خروجه من حزب المحافظين في أوائل هذا القرن لاختلافه معه بشأن بعض الرسوم الجمركية . فانضم إلى حزب الأحرار عام ١٩٠٥ وكافأه هذا الحزب بإسناد وكالة المستعمرات إليه وتوثقت صداقته بلويد جورج في ذلك الحين .

الحرب العالمية الأولى

كان مقتل الارشيدوق فرانز فردنياد ولي عهد النمسا في يونية عام ١٩١٤ الشرارة التي اندلعت منها نيران الحرب العالمية الأولى. وكان تشرشل قد عهد إليه بمنصب آخر . . فلم تكده تنشب الحرب حتى عاد تشرشل إلى منصبه في الاميرالية . . ولم يكده يتولى مقاليد منصبه حتى أعلن تعبئة كل سفن انجلترا لخدمة أغراضها وعندما أعلنت ألمانيا الحرب على روسيا في أول أغسطس من تلك السنة كان الأسطول كله على أهبة الاستعداد .

يقترن اسم تشرشل في خلال الحرب العالمية الأولى بموقعة غاليبولي (١٩١٥) وقد اختلف الكتاب في إسناد مسؤولية الهزيمة المروعة التي لحقت بانجلترا على يد ألمانيا وتركيا في هذه الكارثة التاريخية . ولكن أكثر النقاد العسكريين يذكرون بأن سبب هذه الكارثة يعود إلى جهود الأسطول البريطاني العقيمة في مهاجمة الدردنيل . . ولقد كانت الفكرة التي أوحى للحلفاء بضرورة الاستيلاء على الدردنيل وجوب فتح المواصلات بين البحر الأبيض المتوسط إلى البحر الأسود لإمكان معاونة روسيا . . ولكن كان من المؤكد أنه حتى في حالة

نجاح الأسطول في تحقيق هذه الغاية فانه كان لا بد من معاونة الجيوش البرية بعد أن ينجح الأسطول في عبور بحر مرمرة بيد أن معظم الجيش البري كان موزعاً بين لمنوس ومصر وفرنسا .

وكانت خطة تشرشل الأصلية في هذا الهجوم أن تتعاون قوات الأسطول مع القوات البرية للجيش في المعركة ولكن الذي حدث هو أن الأسطول سبق في هجومه النزول البري وعلى هذا الأساس أمكن تبرئة تشرشل من مسئولية الهزيمة الكبيرة التي لحقت بالحلفاء . ولقد كان الأتراك والألمان في الوقت ذاته يعلمون تماماً بأن نجاح هذه العملية سيغير مجرى الحرب كلها وكان نتيجة هذه الهزيمة أن قدم لورد فيشر القائد الأول للأسطول استقالته من منصبه باعتبار أنه وافق على عملية هجوم الأسطول ، وقد أدى ذلك أيضاً إلى وقوع أزمة سياسية عنيفة في بريطانيا كان من نتيجتها أمام هجوم المعارضة ، عزل تشرشل من منصبه في الاميرالية ثم عين بعد ذلك بفترة من الوقت مستشاراً لدوقية لانكستر ثم توجه إلى فرنسا قائداً للفرقة الثالثة الاسكتلندية وعاد عضواً في مجلس العموم عام ١٩١٦ ولكن لويد جورج الذي كان قد خلف اسكويث كرئيس للوزراء عهد إليه وزارة للتموين الحربي فمضى يحشد من أجلها كل الطاقات لتقوم بواجبها الرئيسي في المجهود العسكري .

وأعيد انتخاب تشرشل في عام ١٩١٨ وكان قد بدأ دعوته بإحلال السلام مع الشعب الألماني والحرب ضد الطغيان البلشفي . ومضت سنوات اختلف بعدها تشرشل مع حزب الأحرار ثم عاد ثانية إلى حزب المحافظين عام ١٩٢٣ ونجح في الانتخابات كنائب محافظ .

وانحصر نشاطه لعدة سنوات في المحيط الداخلي في إنجلترا ولكنه في الوقت ذاته كان يعارض سياسة مهادنة غاندى ، كرجل من غلاة المحافظين الرجعيين . . . كذلك كان معارضاً لبلديين الذى أكره الملك ادوارد الثانى بالتنحى عن العرش بسبب زواج من اللادى سمبسون ، وكان في هذا الموقف من المناصرين لإدوارد الثامن بل لقد أعد بنفسه الوثيقة التى أعلن فيها الملك تنحيه عن العرش . . . ثم بدأ تحذيراته من ألمانيا . . . ومنوهاً بالخطر الناجم عن تزايد قوتها من جديد .

وكان يطلق تحذيراته بين الحين والآخر . داعياً إلى الاستعداد لحرب مقبلة . وكان ينادى بضرورة التسليح مع الوقوف إلى جانب عصبة الأمم .

ولكن صيحاته لم تلق اهتماماً يذكر . ولقد كان تشرشل قديراً على أن يملأ وقت فراغه ، وخاصة في تلك الأيام التى كان فيها بعيداً عن المناصب ، وكان كثيراً ما يبعث

التسلية إلى نفسه في تلك الأيام بالرسم واكتشف أنه عندما ينهك في الرسم فإنه لا يفكر في أى شيء آخر . . . ولقد اشترك ببعض لوحاته في معرض باريس عام ١٩٢١ وبيعت أربعة من تلك اللوحات بمبلغ ٣٠ جنبها للواحدة وكان يوقع على لوحاته باسم شارل مورين ومن الغريب أن بعض أعدائه السياسيين وجدوا في هذا الاتجاه مادة خصبة لسخريتهم منه . ولكنه لم يعر هذا التهميم اهتماماً .

ولقد عاجل تشرشل الكتابة الأدبية في سن مبكرة فكتب في سن الثالثة والعشرين قصة « سافرولا » وهي تروى قصة « الثورة في أورانيا » .

ومن كتبه الذى ذاعت أيضاً كتاب « من لندن إلى مدينة لادى سميث » وفيها يروى الكثير من تجاربه ومغامراته في جنوب أفريقيا .

وكان تشرشل يعتز بإنتاجه الأدبي اعتزازاً كبيراً ، كما كان يهتم اهتماماً بالغاً بالمحاضرات التى يلقيها ولقد قام بجولات في الولايات المتحدة ألقى فيها الكثير من المحاضرات في مختلف الشؤون .

وبعد الأحداث التى مرت ، والتى بدأها تشرشل كمراسل

حربي ، كانت الأقدار تعد تشرشل من جديد لمرحلة أخرى .
مرحلة طاحنة ، قاسية . مرحلة الحرب العالمية الثانية .

الحرب العالمية الثانية

كانت أزمة تشيكوسلوفاكيا عام ١٩٣٨ إنذارا باقتراب نذر
الحرب العالمية الثانية . . . وأخذت إنجلترا تستيقظ من غفوتها
بالرغم من التحذيرات التي أطلقها تشرشل من قبل .

وفي يوم ٣ سبتمبر عام ١٩٣٩ وقع الاختيار على تشرشل
ليعود إلى منصبه وزيراً للحربية .. وانطلق بعض خصومه يعددون
مثالبه . ولم تلبث وزارة تشمبرلان أن استقالت من الحكم إذ أن
الأحداث كانت أقوى من احتمال تشمبرلان وكانت الجيوش الألمانية
قد اجتاحت النرويج . . . وفي يوم ١٠ مايو عام ٤٠ تولى تشرشل
منصبه كرئيس للوزراء وفي هذا اليوم بالذات كان هتلر قد غزا
هولاندا وكان خطاب تشرشل الأول في مجلس العموم البريطاني يتم
عن سياسته المقبلة « النصر ، النصر بأى ثمن وكان تشرشل في ذلك
الحين فوق الخامسة والستين من عمره .

وبدأت الأحداث والهزائم تتلاحق ، فقد خرت فرنسا راحة
وتلت ذلك معركة دنكيرك التي فقدت فيها إنجلترا عشرات الآلاف
من جنودها أثناء انسحابهم من فرنسا كما فقدت فيها للكثير من
سفنها وعتادها الحربي .

وفي هذه الفترة الحرجة يقول تشرشل ، في هذه الأيام من عام ١٩٤٠ صرنا منفردين بعد هزيمة فرنسا ولم يكن في استطاعة دول الدومنيون أو الهند أو المستعمرات أن تمدنا بالمعونة اللازمة التي كنا في أشد الحاجة إليها ، وكانت الجيوش الألمانية المنتصرة المتقنة التدريب ، والمنتصرة في الوقت نفسه تستعد للمعركة الحاسمة الفاصلة وقد توافرت لديها الأسلحة الاحتياطية الضخمة إلى جانب مستودعات الذخائر والمصانع الكبيرة التي تم لها الاستيلاء عليها كإحدى غنائم الحرب . . . وفي الوقت ذاته كانت إيطاليا قد أعلنت علينا الحرب . . . وهي تقف الآن بجيوشها الكبيرة تقربص بنا .

وفي نفس الوقت أيضاً كانت اليابان ، سيئة النظرات إلينا . . . تطالبنا في تهديد وإصرار أن نغلق طريق بورما في وجه المساعدات المرسلة إلى الصين بينما كانت روسيا السوفيتية وقد ارتبطت مع ألمانيا النازية بمعاهدة ، تقدم إلى ألمانيا مساعدات كبيرة هامة من المواد الخام .

أما موقف أسبانيا — وهي تحتل منطقة طنجة الدولية — فإنها قد تنقلب علينا بين يوم وآخر ، وقد تنادى مطالبة بجبل طارق وقد تلجأ إلى ألمانيا طالبة منها النجدة لمعاونتها في الحصول على جبل طارق أو في إنشاء بطاريات هائلة من المدافع لتعوق أسطولنا من

المرور في المضيق كذلك كانت حكومة بيتان الفرنسية قد انتقلت إلى مدينة فيشي ، ومن المرجح أن تعلن الحرب علينا بين حين وآخر .. وكان الأسطول الفرنسي في ميناء طولون قد صار تحت يد الألمان ..

هكذا كان الموقف غاية في السوء كما صورته تشرشل بنفسه عن تلك الفترة الحرجة الحاسمة .

وبمضي تشرشل في إيضاح حالة بريطانيا نفسها في هذه الآونة فيقول : « ومع أن حالتنا المعنوية لم تضعف .. فإن السؤال الذي كان يتردد على ألسنتنا هو : كيف يمكننا أن نعبّر هذه الأزمات والصعوبات القائمة في وجهنا .. كان من المعروف أن الجيش البريطاني على أرض الوطن لم يكن يحمل في الأسلحة سوى البنادق وسوف نمضي فترة طويلة قبل أن نستطيع مصانعنا أن تعوضنا بعض ما فقدناه في دنكرك .. أليس من العجيب ألا يكون العالم بأسره على يقين بأن ساعة بريطانيا الأخيرة قد أزفت ؟ » .

وسادت موجة من الرعب أنحاء الولايات المتحدة على هذه المصير وكذلك الدول الحرة الأخرى ... وكان الأمر يكون يتساءلون « هل يعتبر واجباً عليهم أن يجازفوا بواردتهم المحدودة

حتى يرضوا المشاعر الطيبة نحونا وإن كانت حتى هذه المعاونة
تعتبر مخاطرة لا فائدة منها ؟ ، أليس الأجدي عليهم أن يوفروا
الأسلحة لأنفسهم .

ورأى تشرشل أنه لا بد لبلاده — ولا مناص — من أن
تخوض بريطانيا معركة المصير وكان هتلر يتطلع إلى غزو إنجلترا ولكن
رأيه لم يكن قد استقر .. وكان مرور الأيام في صالح إنجلترا لزيادة
إستعدادها الحربي وتعويض ما فقدته .

وأجرى تشرشل اتصالات وثيقة مع الولايات المتحدة ،
وما لبثت هذه الاتصالات أن كملت بالنجاح فأرسلت إلى إنجلترا
كميات كبيرة من الأسلحة الأمريكية عن طريق الأطلنطي وكان
الحرس الوطني في كافة أرجاء إنجلترا متلهفا على تسلم هذه الأسلحة
وازدحمت الشواطئ البريطانية بمختلف أنواع الوسائل الدفاعية
وتتم تنظيم الجزر البريطانية في مجموعات ووحدات دفاعية ولم يكبد
شهر أغسطس سنة ١٩٤١ يحل حتى كان في حوزة إنجلترا ٢٥٠
مدبابة ١١٠٠ و١٠٠٠٠ أمريكي مضت في معونتها الحربية بالعتاد في كل
يوم حتى ازداد عدد الحرس الوطني وصار يتكون من أكثر من
مليون ، وعندما كان ينقصهم السلاح ، كانوا يستخدمون
بنادق الصيد والمسدسات الخاصة بل الهراوات .. وخلت إنجلترا
هني للطاير الخامس ! .

ويقول تشرشل أيضا عن هذه الفترة « لقد عاشت ألمانيا النازية أياماً مجيدة رائعة انتشى فيها هتلر بخمرة الانتصار : . وكان تأجيله المتوالى لعملية « سبع البحر » ، الذي كان يرتبها للانقضاض على إنجلترا لم تنفذ ، وقد علمنا بعد ذلك أن اختلاف أسلحة الجيش الألماني كان من بين الأسباب الرئيسية لهذا التأجيل المتوالى بالرغم مما كان في حوزة ألمانيا وقتئذ من إمكانيات هائلة . . . »

وجاءت معركة بريطانيا ، وهي تلك الغارات الجوية المتلاحقة التي شنّها السلاح الألماني الجوي على بريطانيا ، ولقد بدأت أولى هذه الهجمات الضخمة التي تعتبر بدء معركة بريطانيا في ١٠ يولييه وقد اتسمت المرحلة الأولى بين ١٠ يوليو ، و ١٨ أغسطس سنة ١٩٤٠ بالعنف والتركيز على القوافل البريطانية في المانش وعلى الموانئ الجنوبية الواقعة بين دوفر وبلايموث . . أما المرحلة الثانية الواقعة بين ٢٤ أغسطس و ٢٧ سبتمبر فكانت يهدفها تمهيد الطريق إلى لندن . وذلك بتحطيم الأسطول الجوي البريطاني ومنشآته لتأمين الهجمات المتوالية العنيفة على العاصمة وقطع طرق المواصلات من الشواطئ المهددة بالغزو .

وفي يوليو عام ١٩٤١ قرر هتلر تأجيل الغزو مرة أخرى حتى ربيع عام ١٩٤٣ عند ما تكون الإغارة على روسيا قد انتهت !

وكان هذا التأجيل - مرة أخرى - في صالح إنجلترا .
كما كان التأجيل في الوقت ذاته مهدداً لألمانيا بل لقلب الدائرة عليها ، وإلى شهر نوفمبر كانت إنجلترا قد دفعت ثمن كل ما وصلها من أمريكا من الأسلحة وكانت قد باعت ما قيمته ٣٣٥ مليون دولار من السندات والأسهم الأمريكية التي صادرتها من أصحابها في لندن مقابل الدفع بالجنيه الاسترليني . كما قامت بدفع ما يزيد على ٤٥٠٠ مليون دولار نقداً وصار كل ما تبقى لدى إنجلترا ألفي مليون دولار معظمها في صورة استثمارات غير قابلة للبيع الفوري في الأسواق .

وهكذا بدت أزمة جديدة .

ولكن هذه الأزمة ما لبثت أن وجد لها الحل الملائم . .

استجاب الرئيس روزفلت إلى نداءات تشرشل ، التي توضح حالة بريطانيا ، وكانت معركة الانتخابات وأمريكا قد انتهت بنوز روزفلت ، وكان روزفلت يبحث عن الوسيلة التي يستطيع أن يتخذها لمعاونة إنجلترا دون معارضة من الكونغرس . واستند روزفلت إلى قانون قديم صدر عام ١٨٩٢ يبيع لوزير الحرية الحرية في تأجير ممتلكات الجيش ما دام يرى في ذلك مصلحة عامة على شريطة ألا يكون الجيش محتاجاً لهذه المعدات لمدة خمس سنوات . . وهكذا لاحت فكرة « التأجير » في ذهن روزفلت .

لتحقيق ما تحتاجه إنجلترا عرضا عن تقديم قروض غير محدودة ،
قد ازداد على نحو لا يمكن سداذه وانتقلت الفكرة إلى حين التنفيذ
بصدور قانون الإعارة والتأجير بعد أن وافق الكونجرس عليه .

وكانت الحرب قد امتدت إلى الصحراء بعد أن أعلنت إيطاليا
الحرب في ١٠ يونيه عام ١٩٤٠ وكانت القوات الإيطالية في شمال
أفريقيا تربو على ربع مليون جندي بينما كانت وحدات الجيش
البريطاني لا تزيد على ٥٠ ألف جندي فكان ميزان القوى في صالح
إيطاليا .

وبدأت القوات الإيطالية هجومها على الحدود المصرية في
١٣ أغسطس وكان الجيش الإيطالي يتكون من ست فرق من
المشاة وثمانية أفواج من الدبابات وكانت الجيوش البريطانية
تتكون من ثلاث فرق للمشاة وفوج من الدبابات وثلاث بطاريات
ومجموعتين من السيارات المصفحة ولكن الهجوم الإيطالي توقف
عند سيدي براني .

واتجه موسوليني إلى اليونان . . . وكان هجوم إيطاليا على
اليونان صدمة هائلة لموسوليني ، إذ قاومت اليونان ، الجيش
الإيطالي مقاومة باسلة .

وكان تشرشل يبذل كل ما في طاقته لتجديد القتال في الصحراء وانتهاز الفرصة لسحق الجيش الإيطالي الذي كان لا يزال عند سيدي براني .

ومن الغريب أن الجيش الإيطالي الذي كان موسوليني يتفاخر بقوة لم يلبث أن انهار وكاد يقع كله في الأسر حتى لقد قيل بأن عدد الأسرى لا يمكن إحصاؤه . . . وكان عددهم يملأ خمسة أفدنة من الضباط ومائتي فدان من الجنود ! .

وفي مستهل عام ١٩٤١ كانت الجيوش الإيطالية في الصحراء الأفريقية قد تداعت وبلغ عدد الأسرى ١١٥ ألف أسير عدا عتاده الحربي ومن بينه ٧٠٠ مدفع .

* * *

كانت خسائر إنجلترا في سفنها البحرية فادحة بما لا يقاس وكان تشرشل يقول « إن الشيء الذي أثار مخاوفي حقاً هو تهديد الغواصات الألمانية فقد كنت على يقين من فشل الغزو ، وقد مهدت لاعتقادي هذا نتائج المعركة الجوية إذ أحرزنا النصر الجوي ، وبذلك صار الغزو شيئاً طيباً بالنسبة لنا ، ونحن الآن نواجه خطراً هائلاً إذ أن شريان حياتنا حتى في غمار المحيطات وخاصة في مداخل جزرنا مهدد باستمرار ، وكان القلق ينتابني أكثر مما لقيته وأشد حين خضنا غمار المعركة الجوية » .

كذلك كان القلق يسود الأميرالية البريطانية .

أما الألمان فانهم بعد أن استطاعوا السيطرة على سواحل فرنسا من دنكيرك إلى بوردو لم ينفقوا وقتهم هباء ، بل سارعوا بإقامة قواعد لغواصاتهم ولطائراتهم المقاتلة على مدى الساحل المحتل . وفوق خطر الغواصات كانت الطائرات الألمانية بعيدة المدى تبحث في أرجاء المحيط لاقتراس السفن الإنجليزية وكذلك كانت الطرادات الألمانية تعمل في جنوب الأطلنطي في طريقها إلى المحيط الهندي للغرض ذاته .

ورداً على هذه المحن المتوالية أنشأ تشرشل لجنة معركة الاطلنطي لمواجهة كل هذه الأخطار وكان من أهم مسؤولياتها العمل بكل الوسائل لغرض الحماية على السفن من كندا إلى بريطانيا وكذلك قام الرئيس روزفلت — ولم تكن الولايات المتحدة قد دخلت الحرب بعد — بإصدار أمره بعدم السماح للغواصات الألمانية والسفن الأخرى المهاجمة بأن تقترب من الساحل الأمريكي وأن تضمن أمريكا وصول ذخائرها إلى بريطانيا حتى منتصف الطريق واستطاع تشرشل باتصاله المباشر مع روزفلت من إنشاء قاعدة لانهلترافى ايسلنده كما أباح روزفلت للسفن البريطانية المصابة من أن تقوم بعمليات الإصلاح في الأحواض الأمريكية .

ومضت أمريكا بعد ذلك ، مع أنها لم تكن قد أعلنت الحرب على ألمانيا في توسيع مدى مساعداتها لانجلترا .

وفي الوقت الذي أخذت فيه اليونان تقل مقاومتها للغزو بعد أن انبرى هتلر لمعاونة صديقه موسوليني فيها ، كان الحال كذلك في يوغوسلافيا التي بذلت كل ما في وسعها من مقاومة ثم ما لبثت أن استسلمت ووصل الألمان إلى بلغراد في ١٣ أبريل سنة ١٩٤٣ كما استسلمت اليونان في ٢٤ أبريل .

وواجهت بريطانيا عملية انسحاب جيوشها من اليونان وكانت مأساة أشبه بمأساة دنكيرك إذ قدر عدد جنود الحلفاء بنحو ٥٠ ألف جندي .

واتصل تشرشل بالأميرال كنجهام ورتب خطته فتدفع بكل الوحدات البحرية الخفيفة لتحمل العبء وخسرت جيوش الحلفاء نحو أحد عشر ألف جندي من بينهم ألف من أبناء قبرص واليونان ويوغوسلافيا .

وقام تشرشل بتوجيه إذاعة إلى الشعب البريطاني جاء فيها علينا أن نسيطر على أعصابنا وإلا يستبد بنا الفزع أو الإحساس بوهن العزيمة ، .

ثم جاء دور رومل .

ورومل هو القائد الألماني الذي ألقى عليه هتلر مهمة ملاقات جيش الصحراء والدخول إلى مصر .

ومن الغريب أن تشرشل — بالرغم من الحرب الضروس
التي قامت بين الجيوش الألمانية والإنجليزية في الصحراء وغيرها ،
لم يتردد أن يسجل العبارات التالية عن رومل .

« لقد أبدى رومل في الحملة الأفريقية ضروباً رائعة من البراعة
في قيادة التنظيمات وتوجيهها وخصوصاً في أرجاع التجمع على
على الفور بعد أية عملية ، والاستمرار في اكتساب النصر والغلبة ،
ولقد كان رومل رجلاً مغامراً عسكرياً نادراً ، يسيطر بكل براعة
على شئون التموين ويستخف بالدفاع ، وكانت القيادة الألمانية قد
ألقت له الزمام في بداية الأمر فذهلت من انتصاراته المتلاحقة ،
وما لبثت أن عمدت إلى التقييد من تصرفاته . . . ولست أنكر أن
ضربات ألحقت بنا أضرار جسيمة للغاية . . . بيد أنني أثنى أقر أنه
كان جديراً بالتحية التي أعلنتها في مجلس العموم البريطاني في يناير
عام ١٩٤٥ ، مع أن جماهير الشعب وجهت إلى لوماً على ذلك ، بل
أننى لأحس بالجرأة إذ أقول أننا كنا نواجه قائداً عظيماً ، جديراً
بكل تقدير ، إذ أنه بالرغم من أنه كان جندياً ألمانياً باسلاً ، فقد
كان يمت هتلمر وكذلك كل أفعاله حتى لقد كان بين المتآمرين في
مؤامرة ١٩٤٤ التي كانت تسعى لإنقاذ ألمانيا من براثن الدكتاتور
الآحمق . . . وفي سبيل ذلك دفع حياته ثمناً لهذا الإجراء . . »

ولقد بدأ رومل هجومه على العقيلة في ٣١ مارس . . ثم أخذ يتقدم والجيش الثامن يتراجع تحت شدة ضرباته الساحقة .

وبعث ويفل إلى تشرشل يشرح له حالة الجيش الثامن وافتقاره إلى كثير من العتاد وخاصة الدبابات الثقيلة السريعة . . ولمس رأى تشرشل خطورة هذه الحالة ، لم يجد بداً من أن يتغافل عن كل تردد تبديده الأميرالية من إرسال القوات عبر البحر الأبيض المتوسط — وهذه من سمائه الخاصة التي طالما لاحظناها في سيرة هذا الرجل — فأصدر تشرشل أمره شخصياً لكي يرسل إلى الاسكندرية رأساً قافلة تتضمن ما يحتاج إليه الجنرال ويفل من الدبابات كما قرر أيضاً أن ترسل قافلة من المدرعات إلى مصر ، وأن تتجه البواخر السريعة الحاملة للدبابات طريقها إلى مصر من أقصر طريق من جبل طارق رأساً حتى توفر نحو أربعين يوماً إذا ما اتخذت مسارها عن طريق رأس الرجاء الصالح . .

أما رؤساء أركان الحرب في بريطانيا فكانوا على عكس رأى تشرشل — إذ كان أملهم ضعيفاً أن تستطيع السفن المحملة بالدبابات أن تمضي سالمة في البحر المتوسط دون أن تتعرض

للخطر بينما لا تستطيع الطائرات البريطانية أن تفرض عليها
حمايتها من قواعدها الساحلية .

وكذلك كانت معركة كريت امتحاناً قاسياً ، هذه المعركة
التي أبدى فيها سكان تلك الجزيرة ألواناً من الشجاعة بيد أنها لم
تلبث أن خرت تحت ضربات الألمان الساحقة وبعد أن أن كلفت
القيادة الألمانية ثمناً غالياً .

سؤال في وسط المعركة

والآن لابد من وقفة قصيرة في وسط هذه المعارك .

لقد عنيانا أن نبسط صوراً خاطفة سريعة من الهزائم المتلاحقة التي منيت بها بريطانيا وفصولاً من صور الحرب العالمية الثانية في خلال النصف الأول من هذه الحرب ، وليس هذا الكتاب خاصاً بتتبع وقائع الحرب العالمية ، إلا بالقدر المناسب في التحدث عن سيرة تشرشل ، ولكن كان لابد أن تقدم هذه الصور ، كما متقدم فيما بعد صوراً أخرى منها ، لنعطى للقارئ صورة من الموقف الحربي الذي كان تشرشل في ميدانه ، بل أبرز شخصياته .

والسؤال الذي لابد لنا أن نجيب عليه الآن هو :

كيف استطاع هذا العجوز الداهية ، تشرشل الممثل لآخر حلقة في الامبراطورية البريطانية ، كيف استطاع أن يحول الهزيمة المؤكدة إلى انتصارات ؟ .

هذا هو السؤال المتشعب .

إن هذا يقتضينا أن نلقى أعضاء أكثر على شخصية تشرشل ، وعلى طراز تفكيره وتديره ، كما ألقينا بعض الأضواء على

الحالة الحربية أو على أجزاء منها في النصف الأول من الحرب العالمية الثانية .

لقد كان تشرشل ، ليس مجرد رجل سياسة فحسب ، يعمل في مكتبه ، بل إن خبرات الماضي الطويل كمراسل حربي ، ومكانة أسرته أمدته بالكثير من الفوائد الجزيلة التي اقتطف ثمراتها فيما بعد ، كان تشرشل يعقد في بداية حياته صداقات مع كثيرين ممن بيدهم مقاليد الأمور للإفادة منهم في الوصول إلى أهدافه كما أوضحنا ذلك عند التحدث عنه في سنواته الأولى كذلك أفاد من علاقاته بالآخرين أيضاً في تدبير شؤونه خلال الحرب العالمية الثانية .

استطاع تشرشل أن يجتذب « عطف » الولايات المتحدة وتأيدها في بداية الحرب ، بعد أن كانت ملتزمة جانب الحذر ، بل الحياد تقريباً ، واستطاع بصداقته مع أقطاب الرأسماليين وفي مقدمتهم برنارد باروخ المالى الأمريكى اليهودى ويعتبر هذا اليهودى من أقوى الشخصيات الموجهة — من وراء الستار — لسياسة امريكا أن يحقق غاياته .

وكذلك استغل عداوة اليهود على ألمانيا أو على هتلر في التوصل إلى تمهيد السبل لزيادة اهتمام الولايات المتحدة بأمر انجلترا التى كانت فى وقت ما ، بعد انهيار فرنسا وفاجعة دنسكرك على شفا جرف هار .

ثم لجأ تشرشل إلى أسلوب النداء بالنجدة من أمريكا ، وله بها أكثر من صلة وخاصة أن والدته أمريكية الأصل ، ولم تمنع الولايات المتحدة بأن تشتري إنجلترا الأسلحة منها بالرغم من أنها لم تكن قد أعلنت الحرب على ألمانيا ، وكان تشرشل يضرب على وتر حساس بأن كلا الدولتين ينطقان بلغة واحدة هي اللغة الانجليزية وبينهما أعراق نسب .

وجاء فوز روزفلت في معركة انتخابات الرئاسة تحقيقا لآمال تشرشل ، فقد كانت إنجلترا تشتري الأسلحة مما لديها من أرصدة الدولارات الأمريكية وبما صادرتة من الدولارات من أصحابها في إنجلترا ، ولكن رصيد إنجلترا من الدولارات كاد ينفذ وحاجتها ماسة إلى الأسلحة الأمريكية بعد أن فقدت في دنكرك أغلب عتادها الحربي وبعد أن خربت أكثر مصانعها الحربية .

وكان « قانون الإعارة والتأجير ، الذي أصدرته الولايات المتحدة ، إنقاذا لإنجلترا بل أن بعض النقاد العسكريين يعتبرونه بمثابة إعلان حرب على ألمانيا ، فقد أمدت الولايات المتحدة تشرشل بكل ما كان يحتاجه من أسلحة وعتاد . . . ثم تدرج تشرشل في التماس النجدة من الولايات المتحدة وهي لا تزال لم تعلن الحرب على ألمانيا ، فاستخدم المواني الأمريكية لإصلاح السفن البريطانية وبذلك تكون في مأمن من هجمات الألمان ، وكذلك تمكن من أن

يجعل لانجلترا قواعد في أرض الولايات المتحدة ليتخذ من هذه
القواعد مراكن للوثوب والانقضاض على ألمانيا .

وإلى جانب هذا كله ، مضى تشرشل في سحب سياسته
العسكرية حتى حقق حلماً ذهبياً بإعلان الولايات المتحدة الحرب
على المحور بعد .

كذلك مضى في تجميع شتات أعداء ألمانيا في صعيد واحد
هو ميدان الحرب ، مستعينا بكل الدول التي غزتها ألمانيا .

وكانت غلطة هتلر الكبرى ، من بين سلسلة أخطائه المتعددة ،
مهاجمته لروسيا ، فألفى تشرشل ضالته المنشودة في هذه الغلطة
العسكرية التي اقترفتها ألمانيا وكانت من الأسباب المباشرة
في هزيمتها .

وتحالف تشرشل مع ستالين . ولقد قال بحق أنه على
استعداد للتحالف مع الشيطان في سبيل إنزال الهزيمة بألمانيا .

وثمة جانب آخر في حياة هذا السياسي الداهية ، فلقد نشطت
المخابرات البريطانية إلى جسم الجيش الألماني ذاته كما نفذت أيضاً
إلى الجيش الإيطالي ، بل حتى جيش رومل في الصحراء استطاعت
مخابرات تشرشل أن تتسلل إليه وفي هذا يقول تشرشل : « كانت

مخبراتنا في ذلك الحين قد نفذت إلى مقر قيادة رومل وتولى عميلنا إرسال أدق الأخبار عما يواجهه رومل من مصاعب شتى في موقفه المتجمد الغريب وكنا ندرك تماماً الشغرة الوحيدة التي كان يأمل القائد الألماني في الإبقاء عليها ، كما وقفنا على الأوامر العنيفة الصارمة والتحذيرات الشديدة التي كانت تصل إلى رومل من القيادة الألمانية العليا ، منذرة إياه ألا تتسرب المكاسب التي أحرزها حتى هذه اللحظة في انسياقه بالاعتماد على حظه المواتي أكثر مما ينبغي . . . وكنا نبعث إلى ويفل بكافة المعلومات . . ، وكذلك يقول تشرشل عن نشاط مخبراته أيضاً .

حصلنا على تقرير المعركة ، الذي أعده الفيلق الجوي الألماني الحادي عشر الذي كانت الفرقة السابعة المحمولة بالجو بعضاً منه ، وعندما توجه نقدنا القاسي إلى أنفسنا وإلى بعض خططنا فإنه يكون من المفيد أن نضيف إلى ذلك وجهة نظر الفريق المضاد . . . ثم كتب الألمان في تقريرهم الذي حصلنا عليه ما يلي : كانت قوات البر البريطانية في كريت ثلاثة أضعاف ما دار في احتمالنا ، وقد أعدوا في غاية المهارة والدقة عمليات الدفاع في الجزيرة ، وجهزوا المنطقة بكل الطرق المستطاعة . . وأتقنت عمليات التعمية بمهارة فائقة ، ونتيجة لافتقارنا إلى المعلومات الصائبة عن مدى قوة العدو ونوع موقعه ، عرضنا هجوم الفيلق الجوي الحادي عشر للخطر وكبدناه أضراراً جسيمة ظهرت نتائجها . . ،

ونضيف إلى هذا تلك المرونة التي اتصف بها تشرشل في تغيير القواد في الوقت الذي يرى فيه أن القائد قد استنفذ كل ما في جعبته من جهد ، دون مبالاة بمركزه أو مكانته فقد حدث أن اختلف ويفل مع تشرشل بشأن امتداد القتال في العراق وأنه يعرض الدفاع عن فلسطين للخطر ، فما كان من تشرشل إلا أن أصر على رأيه ثم رأى بعدئذ أن يعفيه من أعباء وظيفته دون أن يجد في ذلك أية غضاظة وبعد أن قرر ذلك في الثالث الأخير من شهر يونية عام ١٩٤١ « لقد قر شعورنا في لندن بأن ويفل أصبح شخصية شائكة ومن الصائب أن يقال أننا ركبنا الجراد حتى استنفذ قواه . . . »

ومن بين الجوانب الهامة في التركيب السياسي لشخصية تشرشل اختياره لشخصيات الذين يوفدهم كسفراء إلى البلاد الأخرى، كما فعل ذلك عندما اختار هاليفاكس سفيراً لـانجلترا في الولايات المتحدة ، وعندما اختار السير ستافورد كرييس سفيراً لـانجلترا في روسيا السوفيتية وكان للرجل ميولا يسارية تنسجم في روحها مع المهمة الملقاة على عاتقه كما أن فيها من المراعاة لمشاعر السوفييت ما يسهل عليه الكثير في اجتياز العقبات . فلما قدم ريتروبو وزير خارجية ألمانيا إعلان الحرب الرسمي إلى سفير روسيا في برلين في ٢٢ يونية عام ١٩٤١ ، كانت انجلترا قد حذرت روسيا مراراً

بنوايا ألمانيا ؛ دون أية فائدة فإن المسؤولين في موسكو كانوا يؤكدون أن هذه الترهات ليست سوى مناورات نفسية طائشة يثبثها أعداء الاتحاد السوفيتي وألمانيا هادفين إلى نشر الحرب واندلاعها .

وعندئذ تهال تشرشل إذ تحققت أقصى أمانيه ولا نخفل في هذا المجال أيضاً ، إلى أن تشرشل ، استطاع أن يجتذب التأييد والنفوذ الصهيوني .

الدور الختامي في الحرب العالمية الثانية

توالت هزائم الجيوش الألمانية ، وكان أبرزها تلك الهزيمة التي لحقت بـجيوش رومل . . . وكان الجيش الثامن قد قطع مسافة هائلة وكان رومل قد تمكن من سحب قواته المحطمة من العلمين ، وظل الضغط مستمرا على قوات مؤخرته إلا أن المحارة التي بذلتها قوات الجيش الثامن للوصول قبله إلى الجنوب من بنغازي أصيبت بالفشل ، وبهذا استطاع رومل أن يستريح بعض الوقت في العقيلة في حين اضطر مونتجومري بعد تقدمه الطويل إلى مواجهة نفس المصاعب في النقل والتكوين التي عانى منها أسلافه ، ولكن ما لبث رومل أن انسحب بعد الضغط المتوالي عليه . . .

في هذا الحين قرر تشرشل أن يجتمع بالرئيس الأمريكي روزفلت ومع غيره من الأقطاب لبحث موضوع عبر القنطرة عام ١٩٤٣ الرامية إلى مهاجمة ألمانيا في الأراضي التي تحتلها في أوروبا ثم الوثوب عليها .

وكان مكان الاجتماع هو « الدار البيضاء » ، وفي يوم ١٢ يناير عام ١٩٤٣ توجه تشرشل إلى الدار البيضاء ، وقد حدث أن المدفأة التي وضعت في الطائرة التي كانت تقله كادت تحرقه وكانت هذه

المدفأة الغازية قد أعدت لتوليد الحرارة ، وكانت قوتها شديدة .
فأفاق تشرشل من النوم في الساعة الثانية صباحاً ، وكانت الطائرة
فوق المحيط الاطلنطي على بعد خمسمائة ميل من أقرب نقطة برية وأحس
تشرشل بالحرارة تحرق أصابع قدميه وخيل إليه أنها ستبلغ حد
الاحتراق بعد قليل . وتشعل النار في الفراش ، فأيقظ مرافقه الذي
كان نائماً في مقعده ووجه نظره إلى الجهة المنبعثة منها الحرارة
وهبط تشرشل ومرافقه إلى المكان الذي تحفظ فيه القنابل في
الطائرات إذ أن الطائرة كانت من قاذفات القنابل ، فألفيا رجلين
يعملان في نشاط واهتمام للإبقاء على جهاز الحرارة الغازي مشتعلين .
فرأى تشرشل أن هذه العملية غاية في الخطورة من كافة نواحيها .
لما يمكن أن يسببه الجو الغازي بسبب اشتداد الحرارة من احتمال
الانفجار ، وفضل تشرشل حالة الصقيع على الاحتراق وأمر
بإطفاء جهاز التدفئة ، وعاد إلى فراشه وهو يرتجف من البرد
الثلجي إذ كانت الطائرة على ارتفاع ثمانية آلاف قدم في الجو .

وفي يوم ١٤ يناير وصل روزفلات إلى الدار البيضاء أيضاً .
وكان لقاؤهما حاراً ، كما وصل الجنرال ايزنهاور في اليوم التالي ،
وكذلك وصل إلى مكان الاجتماع بعض القادة العسكريين ، وعمد
تشرشل إلى ضرورة حضور الجنرال دييجول الذي كان يمثل
والفرنسيين الأحرار ، ولكن دييجول أبدى في بداءة الأمر تمناً

عن الحضور ما دام الجنرال جيرو سيحضر الاجتماع ، وبالرغم من أن روزفلت أبرق إليه ليحضر فإنه أصر على عدم الحضور ، وعندئذ اشتد الضغط على دييجول بأنه إذا لم يحضر فإن الحلفاء سيتخلون عنه ، وأخيراً وصل في يوم ٢٢ يناير إلى الدار البيضاء ، وتقابل تشرشل مع دييجول في جو عاصف ثم استطاع أن يقنعه بالتحدث إلى جيرو .

وظل مؤتمر الدار البيضاء منعقدًا قرابة أسبوعين تدارس الموقف فيها تشرشل وروزفلت وبقية الأعضاء وانتهى المؤتمر بمشروع عن « إدارة دفعة الحرب في عام ١٩٤٣ » وخلاصة تقرير هذا المؤتمر هي :

تتكون الخطوط العريضة الرئيسية للهجوم على النحو الآتي في البحر الأبيض المتوسط .

(أ) أن يستهدف من احتلال صقلية ما يلي :

١ — تأمين سلامة خطوط المواصلات في البحر الأبيض المتوسط .

٢ — تخفيف الضغط الألماني عن الجبهة الروسية .

٣ — تشديد الضغط على إيطاليا .

(ب) بذل الجهود الممكنة لدى تركيا .

استمرار العمليات في المحيط الهادى والشرق الأقصى بقصد
الضغط على اليابان على أن يبدأ الهجوم عليها فور هزيمة ألمانيا .
وبعد انتهاء هذا المؤتمر ، مضى تشرشل مع روزفلت لزيارة
مدينة مراكش التى كان تشرشل يقول عنها بأنها باريس الصحراء
إذ تؤمها القوافل من كافة أرجاء افريقيا الوسطى منذ أجيال طويلة
لتدفع الجزيات الباهظة لقبائل الجبال قبل أن تصل إليها وأمضى
تشرشل ليلة في المدينة مع الرئيس روزفلت في منزل نائب القنصل
الامريكى في المدينة ، ويصف تشرشل تلك الليلة بقوله « أقام لنا
المستر بيندار — نائب القنصل — وليلة عشاء كبيرة وصعدت مع
الرئيس الأمريكى برج المنزل ، بعد أن حملوه في مقعده ، وجلسنا
نستمتع برؤية مغيب الشمس وراء ثلوج جبال الأطلس ، ومعنا
خمسة عشر أو ستة عشر شخصاً وهم الذين حضروا معاً مأدبة العشاء
وكان يعمنا السرور والبهجة وأنشدنا جميعاً أعذب الأناشيد ،
وغنيت بمفردى ، فى حين اشترك الرئيس مع فرقة الكورس
ولما أراد الرئيس أن يغنى أغنية على انفراد منعه أحد رجال
حاشيته . »

وقام تشرشل بعد ذلك بمقابلة الرئيس التركى عصمت اينونو
فى مدينة اطنة بعد أن طار تشرشل إليها وفى تلك المقابلة تم
الاتفاق بينهما على إقامة ارتباط سلبى وودى بين تركيا والولايات

المتحدة وانجلترا ولما أبدى عصمت اينونو خشيته من روسيا في المستقبل أجابه تشرشل بأن منظمة عالمية ستقوم وستكون مسؤولة عن حفظ السلم وستكون أقوى من عصبة الأمم ، فقال له اينونو أنه يتطلع إلى شيء أكثر واقعية ، فإن أوروبا ملأى بالسلاف والشيوعيين ومن المتوقع أن تتحول جميع الدول المهزومة إلى البلشفية والسلافية إذا هزمت ألمانيا ، فأجابه تشرشل بأن الأمور لا تسير إلى الأسوأ وبعث الطمأنينة إلى الرئيس التركي الذي أثبتت الحوادث بعد الحرب أنه كان أبعد نظرًا من تشرشل .

وبعد اجتماع تشرشل مع عصمت اينونو طار إلى القاهرة ، بعد وقفة قصيرة في قبرص ثم اتجه إلى طرابلس حيث كان الجيش الثامن قد احتلها .

وكانت القوات الألمانية تتوالى هزائمها في أغلب الميادين بعد أن تكاثرت عليها القوى المعادية .

وتوجه تشرشل بعد ذلك إلى واشنطن لتنسيق العمليات الحربية التالية بينه وبين الولايات المتحدة ومنها احتلال صقلية وغزو إيطاليا ولم تلبث عملية غزو صقلية أن تمت وفي يوم ١٧ يولييه عام ١٩٤٣ خرج آخر جندي ألماني من جزيرة صقلية وبعد ذلك يومين بدأت قاذفات القنابل الأمريكية غارة ضخمة على مطار روما

وأرصفة السكك الحديدية فيها فأوقعت أضراراً فادحة فيها وكانت أثرها النفسى مؤلماً وصار انهيار إيطاليا أمراً محتملاً .. وكان ملك إيطاليا يحاول إقضاء موسوليني ، وحاول اعتقاله ولكن الأخير غادر روما يوم ١٩ يوليو عام ١٩٤٣ بطريق الجو لمقابلة هتلر على مقربة من ريميني ، فمضى هتلر يتحدث عن وجوب بذل مجهودات أضخم وذكر أن السلاح السرى الجديد سيصبح جاهزاً للاستعمال ضد بريطانيا فى الشتاء القادم

ولكن هذا الأمر لم يطل ، إذ تخلى المجلس الفاشستى عن موسوليني وكان السكونت شيانو صهر موسوليني من بين الذين تخلوا عنه وانضموا إلى الملك وخذل موسوليني بأغلبية ١٩ صوتاً ضد سبعة أصوات معه . . . ثم طرد موسوليني من منصبه وقام ملك إيطاليا بتأليف حكومة جديدة برئاسة بادوليو وتضم القادة العسكريين وبعض كبار الموظفين وبعد ذلك بيومين نقل موسوليني بأمر بادوليو إلى السجن فى جزيرة بونزا . .

وتلا ذلك مؤتمر كويبك الذى حضره روزفلت وتشرشل وطائفة من القواد تمهيداً لعمليات الانقضاض على ألمانيا ، وغزو إيطاليا . التى لم تلبث أن وقعت وثيقة الاستسلام فى يوم ٣ سبتمبر عام ١٩٤٣ بعد معارك مزيرة بين القوات الألمانية والقوات الأمريكية وقد

أخذ الإنجليز كما هي العادة دائماً وفي الوقت المناسب — يحاربون بدماء غيرهم.

وقبل ذلك بشهور أو على وجه التحديد في ربيع عام ١٩٤٣، كانت الحرب في الجبهة الشرقية قد بلغت نقطة التحول، إذ كانت الجيوش الروسية — حتى قبل معركة ستالينجراد نفسها — قد دفعت بالألمان إلى التقهقر على طول الجهة وتم سحب الجيش الألماني بمهارة ونجاح من القوقاز ولكن الروس واصلوا الضغط وأخرجوا الألمان من حوض نهر الدون إلى ما وراء حوض الدونetz، وهو خط البداية في الهجوم الذي شرع فيه هتلر صيف عام ١٩٤٢ كذلك خسر الألمان الأراضي التي كانوا قد استولوا عليها في الشمال وكذلك تحطم الحصار المضروب على لنتجراد.

بداية النهاية

بعد أن عاد تشرشل إلى إنجلترا من مؤتمر كوييك ، فكر في اجتماع يضم رؤساء الدول الحليفة ، بالنسبة لأهمية العملية التالية وهي الغزو ، ودخول أوروبا عام ١٩٤٤ وكان تشرشل قد اتفق مع روزفلت على اختيار الجنرال مارشال الأمريكي لتولى هذه القيادة ! .

ووصل تشرشل بحراً إلى الاسكندرية في ٢١ نوفمبر عام ١٩٤٣ ومنها طار إلى القاهرة وأقام في منزل بجوار الأهرام حيث وجد الجنرال شيانج كاي شك وقرينته في انتظاره ، حيث كانا قد وصلا قبله وفي اليوم التالي وصل روزفلت واجتمع المؤتمر في فندق ميناهوس لبحث عملية ، السيد الأكبر ، الرامية إلى تحقيق هذا الهجوم على أوروبا .

وكان تشرشل على موعد بعد ذلك مع ستالين في طهران ، فتوجه لملاقاته مع روزفلت والمستشارين وبدء الاجتماع الأول بينهم في دار السفارة السوفيتية بطهران في يوم ٢٨ نوفمبر .

وبعد انتهاء الاجتماع والعشاء انتحى تشرشل بستان جانباً ، واقترح على الأخير أن يتحدثا قليلاً عما سيقع بعد أن يكسب الحلفاء الحرب ! فأجاب ستالين : دعنا ندرس أولاً أسوأ ما يمكن .

أن يحدث ، إذ خيل لستالين أن الفرصة ستتاح لألمانيا لكي تعود إلى ما كانت عليه ، وستتمكن من شن حرب جديدة في وقت قصير ، وكان ستالين يخشى بعث الروح الوطنية الألمانية ولما سألته تشرشل عن الوقت الذي يقدره لذلك أجاب ستالين « في بحر ١٥ أو عشرين عاماً ، وكان من رأى ستالين أن يتوافر الحلفاء على دراسة القيود الواجب فرضها على طاقة ألمانيا الصناعية ، إذ أن الألمان شعب قدير دائب على العمل ، كثير الموارد ، وفي طاقته أن يحدد قوته في سهولة وسرعة فائقة فقال له تشرشل أن من الواجب فرض إجراءات الإشراف عليها وحرمان ألمانيا من الطيران المدني والحربي . . فمضى ستالين يتسامل : وهل يمكن أن تمنع صانعي الساعات ومعامل الأثاث من صنع أجزاء القنابل ؟ فأجابه تشرشل من الواجب أن نؤمن سلامة العالم لخمس سنوات قادمة عن طريق نزع سلاح ألمانيا ومنعها من التسليح والإشراف على كافة المصانع بها . وحظر الطيران عليها كما أنه يجب أن تستمر صداقة أمريكا وروسيا وبريطانيا وانتهى ستالين إلى القول ، بأن كل ما قاله تشرشل مفيد ولكنه غير كاف .

وانتهى مؤتمر طهران بعد محادثات طويلة وشاقة في أوائل شهر ديسمبر وتقرر أن يبدأ الغزو عبر القناة أي عملية السيد الأكبر في شهر مايو عام ١٩٤٤ ولا بد هنا أن نقتطف بعض ما جاء على

لسان تشرشل عن هذه الفترة حتى يتبين لنا أن صداقة أولئك الحلفاء كانت صداقة مصلحة أكثر منها صداقة قائمة على أسس ، إذ أن تشرشل الذى نادى من قبل بأنه سيتحالف مع الشيطان فى سبيل هزيمة ألمانيا ، لم يلبث أن بدأت شكوكه تزايد فى روسيا السوفيتية يوماً بعد يوم .

• أصبحت النواحي السياسية أقرب إلى الخيال وكان من الواضح أنها تعتمد على نتائج المعارك العظيمة التى كان من المقرر أن تدور وعلى أوضاع كل من الحلفاء بعد تحقيق النصر ، ولم يكن من المناسب فى طهران بالنسبة للديموقراطيات الغربية أن تقيم خططها على أسس من الشكوك فى موقف روسيا ساعة الانتصار ، وعند زوال جميع الأخطار . . ولما كان ستالين قد وعد بدخول الحرب ضد اليابان فور الانتهاء من هزيمة هتلر . وكان أمل الغد يتركز فى الإسراع بنهاية الحرب ، فقد تقرر إقامة جهاز عالمى يحول دون نشوب حرب أخرى ويقوم على أسس القوة المشتركة للدول العظمى الثلاث ، .

وما أن انتهت الحرب حتى وقعت تطورات هائلة فياضة بالكوارث ، فالحدود البولندية لا توجد إلا فى عالم الخيال . . وها هى بولندا قد خرت ساجدة مرعدة الأوصال فى قبضة الشيوعية السوفيتية وقد قسمت ألمانيا حقاً تقسيماً مخيفاً . حيث قسمت إلى

مناطق محتلة عسكرياً ، بما لا يسع الإنسان إلا القول بأن هذه
المأساة لا يمكنها أن تستمر .

وهذا الاعتراف الحرفي الذي جاء على لسان تشرشل عن
الأحداث التي تلت الحرب ، يوضح لنا جانباً من الحصافة السياسية
لهذا الرجل ، فإنه في سبيل الغاية الأساسية ، أو بمعنى آخر في سبيل
إنقاذ إنجلترا تحالف مع كل القوى لمحاربة هتلر دون أن يتطلع
إلى عواقب هذا التحالف ، كأن أولئك الحلفاء سيلتزمون حتماً
بالسير في فلكه أو فلك إنجلترا وفي مجالاتها ، دون مراعاة لصالحهم
الشخصية ، أو مصالح دولهم وأمنها ، فإذا ما تطلعت تلك الدول
إلى غير ذلك ، اعتبر هذا خرقاً للاتفاقات التي تمت بينهم ، والحرب
أولاً وأخيراً خدعة ، وكان لابد له أن يفطن لذلك . وكان لابد
له أن يدرك بأن المصالح التي تجمع الأشخاص أو الدول هي ذاتها
التي تفرقهم كما حدث ذلك فعلاً في السنوات التالية كما سنرى ذلك .

وقام تشرشل بعد ذلك بعقد عدة اجتماعات أخرى لتنسيق
العمليات الحربية .

وبدأت عملية الغزو أو عملية السيد الأكبر ، في يوم ٦ يونية
عام ١٩٤٤ وفي يوم ١٩ يونيو عقد هتلر مؤتمراً على مقربة من
سواسون شهده رونشتادت ورومل وبين له القائدان وجوب

سحب الجيش السابع الألماني بانتظام قبل أن يتعرض للدمار إلى
نهر السين حيث يستطيع أن يخوض بالاشتراك مع الجيش الخامس
عشر معركة حاسمة ومتحركة ولكن هتلر لم يدع لأيهما وأصر
كما سبق أن أصر في روسيا وإيطاليا على وجوب القتال عن كل شبر
من الأرض وكان الأسطول الذي اجتاز المانش يتكون من ٦٠٠
بارجة و ٤٠٠ سفينة غير آلاف من السفن الصغيرة والقوارب
وبدأ إنزال الجنود إلى شواطئ نورمانديا في عدة نقاط .

وبعد بدء هجوم الحلفاء بستة أيام أمكن إنزال ٣٢٦ ألف
جندي و ١٠٤ ألف طن من العتاد الحربي و ٥٥ ألف سيارة إلى
الشواطئ الفرنسية وفي يوم ٣٠ أغسطس عام ١٩٤٤ عبرت قوات
الحلفاء نهر السين في عدة جبهات وخسر الطرفان في المعارك
الضارية التي نشبت بينهما عشرات الألوف من القتلى والجرحى
والأسرى .

وبينما كانت إنجلترا وأمريكا في واد ، كانت روسيا السوفيتية
في واد آخر من المعركة ، فقد كانت لها سياستها الخاصة بها تجاه
الدول التي وقعت فريسة الغزو الألماني ، والتي رأت أن تنضم إلى
المجموعة الشيوعية ، كرومانيا وفنلندا وبولندا وغيرها ، وكانت
بولندا قد قاتلت الألمان بشجاعة منقطعة النظير وصمدت وارسو
أكثر من ٦٠ يوماً ضد الألمان وسقط في ميدان المعركة لتحرير

بولندا أكثر من ١٥ ألفاً من ٤٠ ألفاً من الرجال والنساء كانوا
يؤلفون جيش المقاومة السرية وأصيب أكثر من ٢٠٠ ألف من
سكان وارسو كما لقي أكثر من ١٠ آلاف جندي ألماني حتفهم
و ٧ آلاف جندي ألماني مفقود و ٩ آلاف جريح .
وعندما دخل الروس المدينة لم يجدوا شيئاً غير الشوارع
المخرّبة والجثث التي لم تدفن . .

* * *

كانت الحرب لا تزال تدور رحاها في كثير من الميادين شرقاً
وغرباً ، ولكن النتيجة النهائية بدت واضحة . فإن تكاثر الدول المعادية
هتلر ، التي استطاع تشرشل أن يجمع أشتاتها بكل الوسائل الماهرة
التي أتقنها ، ودخول الولايات المتحدة الحرب بعد أن قامت
اليابان بغارتها الرهيبة المفاجئة على ميناء بيرل هاربور ، وانقضاء
الدول التي كانت الجيوش الألمانية تحتلها . . كل هذه العوامل
وغيرها جعلت النهاية المحتمة للحرب بادية ظاهرة . . وكانت
المسألة قضية وقت فحسب ، ويصف تشرشل هذه الفترة بقوله :
كان من الطبيعي أن تنمو أطماع الروس بعد أن رفعت الشيوعية
رأسها مزجرة ، لذلك أحسست بضرورة الاجتماع شخصياً مع
ستالين وأن أستغل العلاقات الطيبة التي تربطنا بالسوفيت للتفاهم

معهم على الحلول المناسبة للمشكلات الجديدة التي بدت واضحة بين الشرق والغرب ، وخاصة مصير بولندا التي دخلت انجلترا الحرب بسببها ، وكذلك الحال بالنسبة لليونان ومصيرها الذي يؤثر علينا تأثيراً واضحاً ، وكانت الحكومتان البولندية واليونانية قد لجأتا إلى لندن وكنا نشعر بالمسئولية لإعادتهما إلى بلادهما ، وكذلك كانت الولايات المتحدة تشاركنا المخاوف وإن لم تكن قد أدركت قوة النفوذ الشيوعي الذي تسرب قبل زحف الجيوش الروسية القوية ثم مضى في ركاها . وبالإضافة إلى هذه القضايا الخطيرة التي أثرت تأثيراً بالغاً في الشعوب الأوروبية فإن مشكلات التنظيم العالمي أخذت تبلور أمامنا ، وكنا قد عقدنا من قبل مؤتمراً طويلاً في « دومبارتون أوكس » بالقرب من واشنطن ، بين شهري أغسطس وأكتوبر ، حيث وضعت الولايات المتحدة وبريطانيا والاتحاد السوفيتي والصين المشروع الذي صار الآن معروفاً لحفظ سلام العالم وأمنه .

وقد كشفت المناقشات الدائرة بين هذه الأطراف عن وجود خلافات كثيرة بين الدول الكبرى الثلاث لأن الوفد السوفيتي لم يكن راغباً في الاشتراك في منظمة دولية تتغلب فيها أصوات مجموعة من الدول الصغرى على صوته

وتوجه تشرشل إلى موسكو لتسوية الموقف الناجم عن ظهور

أطماع روسيا في البلقان وبولندا وغيرها ، وفي أثناء اجتماع موسكو كان الوفد البولندي ليسوا سوى جماعة من الشيوعيين إذ صرح رئيس اللجنة البولندية بقوله : « إننا نطالب باسم بولندا أن نكون جزءاً من روسيا » ، بينما كان البولنديون في لندن ينظرون نظرة مغايرة وأن يوضع خط للحدود بين بولندا وروسيا « خط كرزون » .

ومنيت المحادثات بشأن بولندا بالفشل ، ومن الغريب أن انطباع تشرشل عن ستالين كان حسناً بعد ذلك الاجتماع إذ بدا له أن حديثه مع ستالين كان يتسم بالود والانطلاق ، مما جعل تشرشل يسجل بأن ستالين لم يكن الحاكم المطلق في بلاده حتى لقد قال تشرشل لزملائه « إن هناك يداً خفية تلعب وراء ستالين » .

كان يوم ١١ نوفمبر سنة ١٩٤٤ هو يوم الهدنة في فرنسا ، واتفق تشرشل على زيارة ، باريس في هذا اليوم ، وقد وصلت إلى تشرشل تقارير من المخابرات البريطانية أن المتعاونين مع الألمان سيقومون باغتياله عند قدومه ، ف اتخذت احتياطات ضخمة لحمايته . و هبط تشرشل يوم ١٠ نوفمبر في مطار أورلي حيث كان ديجول في استقباله ، ثم ركب سيارة مجتازاً ضواحي باريس حتى

وصل الـركب إلى « الكي دورسيه » ، حيث حل تشرشل وقرينته وابنته ماري ضيوفاً على فرنسا .

وكانت المعارك الحربية لاتزال قائمة مع ألمانيا في جبهات أخرى بالرغم من تحرير باريس ، وكانت القوات الألمانية لاتزال تقاتل ببسالة منقطعة النظير ، وقد قام تشرشل في أثناء وجوده بباريس بزيارة عدة مواقع من جبهة الحرب .

... وفي الوقت ذاته كانت الحالة في اليونان تتفاقم من الخطر الشيوعي في اليونان ، وكانت الحرب الأهلية قد بدأت بين اليونانيين أنفسهم وكان الجيش البريطاني الموجود في اليونان هدفاً آخر للشيوخيين اليونانيين كما أخذت الحملات الشيوعية تشتد على بريطانيا وعلى تشرشل ذاته في اليونان .

بل لقد اشتدت الحملات على تشرشل في مجلس العموم البريطاني ذاته وكادت حكومته تنهار بسبب اشتداد الحملة عليه في مجلس العموم البريطاني ، وكانت القوات البريطانية تقاتل بشدة في قلب مدينة أثينا وقد حوصرت وتفوق عليها العدو عدواً ، وكانت تشتبك في قتال من بيت إلى بيت مع العدو يرتدى أربعة أخماس أفراده الملابس المدنية .. وكان ياباندريو رئيس الوزراء اليوناني وبقية وزرائه قد فقدوا كل سلطة كما رفض ملك اليونان الاقتراح بإقامة مجلس وصاية يرأسه رئيس الأساقفة ، فقرر تشرشل أن

ينذهب بنفسه إلى أثينا في ٢٤ ديسمبر عام ١٩٤٤ ليتعرف على رئيس الأساقفة الذي تتوقف على شخصيته الشيء الكثير ، واستقبل تشرشل رئيس الأساقفة على ظهر الطراد أجاكس الذي كان يقله ، ومضى الرجل يتحدث برارة عن فظائع جيش التحرير « ايلاس » وعلى اليد التي تلعب وراءه كما تبين لتشرشل مخاوف الأسقف من الشيوعيين وذكر الأسقف أنه أصدر منشوراً بحرمان رجال جيش التحرير للفظائع التي يرتكبوها وعقد بعد ذلك مؤتمراً برياسة رئيس الأساقفة وجلس تشرشل على يمينه وانتهى المؤتمر بأن يقبل جيش التحرير الهدنة وتطهير منطقة أثينا من قواته ووعد تشرشل بأن القوات البريطانية ستجلو حالما يتم تأليف الجيش اليوناني الوطني وعاد تشرشل إلى لندن حيث قابل ملك اليونان الذي كان لا يزال موجوداً بها ووافق الملك في نهاية الاجتماع على ألا يعود إلى اليونان إلا إذا دعى للعودة بإرادة حرة ونزيهة كما وافق على تعيين رئيس الأساقفة وصياً على العرش وهكذا تحررت اليونان من الشيوعية ويعلق تشرشل على ذلك بقوله « لقد رأيت بوضوح أن الشيوعية ستكون الخطر الذي يهدد الحضارة والتي يجب أن نواجهها بعد هزيمة النازية والفاشية .

لم تحل أوائل عام ١٩٤٤ أو على وجه التحديد لم تحل نهاية شهر يناير من تلك السنة حتى كانت جيوش هتلر قد سحبت داخل ألمانيا ، إلا بعض فلول من الجيش الألماني في المجر شمال إيطاليا ، ولكن الوضع السياسى فى شرق أوروبا ، كان على غير مايشتهى تشرشل ، فإن رومانيا وبلغاريا قد صارت فى قبضة الروس ، وكانت المجر ويوغسلافيا تفور بالمعارك الدامية . . أما بولندا فانها على الرغم من أنها تحررت من الألمان فقد احتلتها روسيا مع أن الاتفاق غير الرسمى والموقت الذى عقده تشرشل مع ستالين فى خلال زيارته لموسكو لم يكن المقصود به أن تتحكم روسيا فى هذه المناطق الكبيرة بعد هزيمة ألمانيا !

وكانت الأسئلة التى تتردد فى ذهن تشرشل : ما هو وضع أوروبا بعد الحرب وكيانها كله يتطلب ضرورة إعادة النظر فيها حتما ؟ وكذلك ما هى الطريقة التى ستتبع فى معاملة الألمان بعد هزيمتهم وما هى المساعدة التى سيقدمها الاتحاد السوفيتى فى المرحلة النهائية لهزيمة اليابان ؟ وما هى التنظيمات التى تستطيع دول الحلفاء الكبرى أن تقدمها لسلام العالم ولحسن تنظيمه ؟ . .

مؤتمر يالتا

ونظراً إلى أن محادثات دو مبارتن أوكس كانت قد كشفت عن وجود بعض الخلافات ، وكذلك محادثات بولندا ، مع أن تشرشل بذل كل ما في وسعه خلال زيارته لموسكو في نوفمبر عام ١٩٤٤ لتذليل العقبات إلا أن روسيا - بالرغم من الاتصالات غير المجدية التي تمت كذلك بين روزفلت وستالين - اعترفت بالجناح البولندي الموالي للشيوعية والمسماة لجنة لوبلين باعتبار أنها حكومة بولندا المؤقتة .

ويحسن هنا أن نقطف ما جاء على لسان تشرشل عن هذه اللحظات الحاسمة ، لما كان الرئيس روزفلت مقتنعاً كل الاقتناع بأهمية انعقاد مؤتمر آخر يضم الثلاثة الكبار ، وبعد إلحاف شديد من ناحيتي ، وافق روزفلت على أن نعقد أنا وهو مؤتمراً تمهيدياً في مالطة ، وكان الرئيس يعلم المخاوف التي تلازمني بشأن المستقبل فغادرت إنجلترا في يوم ٢٩ يناير عام ١٩٤٥ على طائرة ومعى ابنتي سارة وعدد من الموظفين الرسميين ووصلنا إلى مالطة يوم ٣٠ يناير عام ١٩٤٥ وكذلك وصلت السفينة الحربية الأمريكية «كونيس» يوم ٢ فبراير عام ١٩٤٥ إلى الخليج وعلى ظهرها روزفلت وعقدنا

اجتماعنا الأول في هذه السفينة واستعرضنا تقرير هيئة أركان الحرب المشتركة والمباحثات العسكرية التي كانت دائرة في ماطلة منذ ثلاثة أيام ، كما انتهزنا الفرصة لاستعراض الموقف العسكرى كله والحملة المقبلة في جنوب شرقى آسيا والمحيط الهادى والوضع فى البحر الأبيض المتوسط . . وأسفرت المباحثات عن نتائج هامة بشأن المسائل العسكرية واتفقنا على وجهات نظرنا قبل الشروع فى المحادثات مع الروس التى ستبدأ بعد ذهابنا إلى يالتا حيث تقرر عقد الاجتماع هناك . وانتقلنا بالطائرات — الوفدين الأمريكى والبريطانى ، وعدده ٧٠٠ رجل إلى مطار ساكى فى جزيرة القرم ثم توجهنا بالسيارات إلى يالتا .

وقال تشرشل لستالين عندما تساءل عن الطريقة التى ستجربها بها ألمانيا : إن هذه القضية معقدة لا يمكن حلها فى خمسة أو ستة أيام لأن مثل هذا الموضوع يتطلب دراسات عميقة فى التاريخ وعلم الأجناس البشرية والحقائق الاقتصادية واستعراضا طويلا تقوم به لجنة خاصة تتولى دراسة مختلف الاقتراحات وتقدم رأيها فيها وكذلك اتفق المجتمعون على دراسة مشروع دومبارتون أوكس لضمان الأمن العالمى وموضوع بولندا ، وكان مؤتمر دومبارتون أوكس قد انتهى من قبل ذون نتيجة حاسمة .

وقال ستالين فى مؤتمر يالتا أنه يخشى أنه بالرغم من تحالف

الدول العظمى الآن ، وأن أى منها لن تقوم بأى عمل عدوانى . .
فانه يخشى أن الزعماء الثلاثة قد يختفون فى المسرح فى خلال عشر
سنوات أو نحو ذلك ويتولى السلطة جيل جديد لم يمر بتجربة
الحرب ، وقد ينسى هذا الجيل كل ما مر به العالم من محن . . ثم
أردف ستالين قائلا : « إننا متفقون فيما بيننا على ضرورة أن يحل
السلام لمدة ٥٠ سنة على الأقل فاذا ظللنا متحدين ، فلن يكون
للألمان أى خطر يهددنا — ومن أجل هذا يجب التفكير فى ضمان
هذه الوحدة مستقبلا وأن تنضم الصين وفرنسا إلى جبهة الدول
الثلاث . »

واستطرد ستالين بأنه يجب الحصول على ضمانات فعالة إذ حدث
فى عام ١٩٣٩ أن طردت روسيا من عصبة الأمم فى أثناء الحرب
الروسية الفنلندية بايعاز إنجلترا والولايات المتحدة وصرنا فى عزلة .

وتمكن روزفلت بعد جهد بالغ اقناع ستالين بقبول مشروع
أمريكى يصير فيه مجلس الأمن عاجزا عن إصدار أى قرار إلا إذا
أجمع عليه الأربعة الكبار وإذا رفضت أية دولة منها أى مشروع
فلا يجوز لمجلس الأمن إقراره وهذا هو حق الفيتو . . أما تشرشل
فكان يرى أن إقامة أى جهاز عالمى يجب أن يكون على أساس
إقليمى ، إذ أن هناك مناطق إقليمية موجودة فعلا كالولايات

المتحدة وأوروبا وجامعة الشعوب البريطانية وأمريكا الجنوبية والاتحاد السوفيتي وكذلك المجموعات الأفريقية والآسيوية وكان الهدف الذي يبتغيه تشرشل من ذلك هو حل القضايا التي تدور حولها الخلافات المحلية الحادة في المجالس الإقليمية ، التي ترسل بثلاثة أو أربعة من ممثليها إلى المجلس ويكون هذا المجلس الأعلى مؤلفاً من ٣٠ أو ٤٠ شخصية عالمية يكون كل واحد منهم مسئولاً عن منطقته ومعالجة القضايا العالمية . . وكان تشرشل يعارض جمع الدول صغيرها وكبيرها في جمعية عمومية إذ أن ذلك سيكون أشبه ما يكون بتنظيم جيش لا فرق فيه بين القيادة العليا وقادة الفرق والكتائب وانتهى مؤتمر يالطا ومضت عدة أسابيع على انتهائه ، ولكن الحكومة السوفيتية لم تنفذ شيئاً مما اتفق عليه المؤتمر بشأن بولندا، وازدادت الحالة سوءاً إذ بدت نوايا روسيا واضحة بضم رومانيا إلى الحظيرة السوفيتية وكأنما كان ستالين قد أقر على الورق فقط مبادئ مؤتمر يالطا ! وها هو يضم رومانيا ! وهكذا أخذت السياسة السوفيتية تبدو واضحة أمام عيني تشرشل المغمضتين . . يوماً بعد يوم إذ طلبت روسيا أن تمثل بولندا في المؤتمر الذي ستعقده الأمم المتحدة في سان فرانسيسكو وأن يقتصر هذا التمثيل على حكومة برلين الموالية لها ! وعندما رفضت الدول الغربية هذا الطلب رفض السوفييت السماح لمولوتوف بحضور المؤتمر .

وحاول تشرشل أن يتصل بستالين لإيقاف مولوتوف عند حد وذلك بأن يبعث برسالة شخصية إليه ، كما ناشد تشرشل روزفلت أن يوجه رسالة مشتركة لستالين ليذكره بتأزم الحالة ، ولكن ستالين كان قد مرض واشتدت عليه الوطأة !

وهكذا أخذ تشرشل يرى غير ما كان يتوقع من روسيا ولم يكذ يستمتع بلذة الانتصار ، إذ أن استسلام ألمانيا لم يكن قد تم بعد !

الفصل الأخير في الحرب

لقد تبدلت العلاقات بين الديموقراطية الغربية وبين روسيا السوفيتية بعد أن تحطمت القوة العسكرية الألمانية ، كأنما كان ما يربط بينهما العدو المشترك وهو الذي كان يوحد بينهما فلما اختفى خطر هتلر من على المسرح بدأت الدعوة الشيوعية سافرة في فرض سيطرتها وقد اعترف تشرشل بذلك وسجل هذا بالحرف الواحد: «هكذا أصبح هذا النجاح الظاهري الذي أحرزناه من أشد اللحظات تعاسة وشقاء على نفسى ، وكنت أسير بين الجماهير المحتشدة أو أجلس إلى المائدة التى امتلأت برسائل التهاني وقلبي يذرب منصهرا بالآلام ، كما كان عقلى مشتتاً وهو واقع تحت ثقل كابوس من القلق والتوجس والمخاوف ..»

وقد أدى تقدم الجيوش السوفيتية والانتصارات التى أحرزها الجنرال الكسندر فى إيطاليا . والفشل الذى منى به الألمان فى هجومهم المضاد فى الأردن وزحف الجنرال أيزنهاور على الراين أدى كل ذلك إلى اقتناع كل الألمان بأن النهاية المحتمة قد دنت والساعة قد أزفت فيما عدا هتلر والأفراد القلائل الذين حوله .. وكان السؤال المحير لدى أولئك الألمان الذين أدركوا الحقيقة أخيراً

هو لمن يجب أن يستسلموا . . كان من المسلم به أن الألمان ليس في وسعهم أن يطلبوا الصلح من روسيا . . فلم يبق أمامهم سوى أن يتوجهوا نحو الغرب . . وكان هذا السؤال يحمل تساؤلاً آخر هل في استطاعتهم أن يعقدوا هدنة مع أمريكا وبريطانيا ؟ ولكن الإجابة كانت واحدة وهي الاستسلام بلا قيد أو شرط .

أما هتلر ، فكان يدرك بأن الرايخ الثالث قد مات وأنه لا بد له أن يموت معه .

وكانت وثمة مفاوضات تجري بين قواد الغرب وبعض القواد الألمان للاستسلام ، وعندئذ أبدى ستالين استياؤه الشديد واعتبر هذا انتهاكاً صارخاً للارتباط الذي جمع روسيا مع أمريكا وبريطانيا ، وكانت روسيا عنيفة في اتهامها ، فأبلغه تشرشل أن روسيا قد أساءت الفهم ، وأن المفاوضات الجارية لا تزيد عن استسلام عسكري يعرضه الألمان وأن نية الحلفاء متجهة إلى دعوة ممثلي الروس للحضور إلى مقر الحلفاء ، وفي الوقت ذاته بعث ستالين إلى روزفلت رسالة يقول فيها أنه نتيجة للمفاوضات الدائرة بين القواد الألمان والقواد الأمريكيين والانحياز فقد توقف سير الحرب بالنسبة للدولتين بينما يواصل الألمان الهجمات على الروس . . . وتأثر روزفلت من هذا الاتهام لم يشأ أن يرد عليه بنفسه وقامت

أمريكا بإرسال خطاب ترد على اتهماته وعلى أنه مما يحز في النفس وجود مثل هذا الجو من عدم الثقة بيننا النصر قاب قوسين أو أدنى .

وفي يوم ١٢ أبريل عام ١٩٤٥ مات روزفلت فجأة وتولى ترومان مقاليد الحكم رئيساً للولايات المتحدة ، ولم يكن من عادة روزفلت أن يطلع ترومان يوماً بيوم على الحوادث الجارية والاتصالات التي يقوم بها ، فكان مركز ترومان دقيقاً في الشهور الأولى وقبل أن يطلع على جميع الملفات التي تحوى الكثير مما حدث في الميدان الدولى ، وأولى ترومان اهتماماً كبيراً بالنسبة لبولندا التي كانت نوايا روسيا تستهدف أن تنضم إلى الدول الشيوعية ، إذ أنها ما لبثت أن رفضت فكرة إشراف الدول الثلاث على الانتخابات في بولندا باعتبار أن هذا الإشراف يعتبر تدخلا معيباً في الشؤون الداخلية لبولندا .

وفي خلال ذلك كله لم تكن مقاومة الألمان قد خمدت ، بل مضت تناضل بيد أنه كان نصلاً مستميتاً يأساً مع أن العتاد الحربى الألمانى كان كافياً إلا أن الجيوش الألمانية كانت مفتقرة إلى الوقود ولم تلبث مقاومة الألمان فى شمال إيطاليا أن انتهت ، واستسلم ما يقرب من مليون جندى ألمانى كأسرى حرب فى ٢ مايو عام ١٩٤٥

وجاءت نهاية موسوليني أيضاً إذ أنه قرر في ٢٥ أبريل حل ما تبقى من القوات الإيطالية المسلحة وطلب من أسقف ميلانو أن ينظم اجتماعاً له مع أعضاء اللجنة العسكرية السرية لحركة التحرير الإيطالية الوطنية ، ولكنه خرج غاضباً من الاجتماع ، وفي مساء ذلك اليوم خرج موسوليني من قصر الأسقف غاضباً ومعه بعض زعماء الفاشست الموالين له بعد أن ارتدى معطف وقلنسوة جندي ألماني ، ولكن دورية من دوريات المقاومة الإيطالية أوقفت موسوليني وجماعته ووضعت القيود الحديدية في يديه كما اعتقلت عشيقته بيتاتشي ، وفي اليوم التالي حمل الشيوعيون موسوليني وعشييقته إلى خارج المدينة حيث قُتلا ونقلت جثثهما إلى ميلانو حيث علقا من الأقدام في خطاطيف الجزارة في إحدى محطات البنزين في ناحية بيازلورنيو وبذلك اختتمت حياة موسوليني الذي طالما قاد بلاده من نصر إلى نصر ، والذي وضعها يوماً ما في عداد الدول الكبرى .

وكانت ربحي الحرب دائرة بين قوات الحلفاء والقوات الألمان في غير هوادة في الأراضي الألمانية وكان هتلر قد قرر في يوم ٢٢ أبريل سنة ١٩٤٥ قراره النهائي أن يظل في برلين حتى الموت وكان الروس قد طوقوا برلين وحاول جورنج ، وكان قد اتجه إلى جنوب ألمانيا ، أن يعلن نفسه خليفة لهتلر باعتبار أن

الآخير قد قرر البقاء في برلين وحدها وأنه بذلك يتنازل عن كل سلطاته ولكن ردهتلر على ذلك بأن عزل جورنج من جميع مناصبه، وبعد ذلك وقع جورنج أسيراً في يد القوات الأمريكية مع أكثر من مائة ضابط من رجال السلاح الجوي الألماني، أما من بقي مع هتلر فهم قلة من الرجال ومن أبرزهما جوبلز ويورمان، وكان القتال يدور مستعراً في شوارع برلين، وكتب هتلر وصيته يوم ٢٩ أبريل صباحاً، ثم جاءته الأنباء بمصرع موسوليني، وفي يوم ٣٠ أبريل عام ١٩٤٥ تناول طعام الغذاء ثم انسحب إلى حجراته وانتحر بمسدسه وتناولت إيفا براون التي كان هتلر قد تزوجها سرا السم وأحرقت الجثتان في ساحة استشارية الرايخ الثالث. أما جوبلز فقد قتل نفسه وأولاده الستة بالسم ثم طلب إلى رجال حرسه إطلاق النار عليه وعلى قرينته، أما بقية أعضاء مجلس قيادة هتلر فقد وقعوا أسرى في يد رجال السوفييت.. وكذلك تناول هملمر السم بعد أن قبض عليه متنكراً.. وكان هتلر قد عين الأميرال دونتس رئيساً من بعده.

وأخيراً استسلم دونتس بلا قيد أو شرط وتفلس العالم الصعداء بانتهاء هذه الحرب الضروس وقال تشرشل في كلمة وجهها إلى الشعب البريطاني :

إن علينا في أوروبا أن نتأكد بأن الأهداف العليا السامية

التي من أجلها دخلنا الحرب ، لن يكون مصيرها أن تكون حبرا على ورق في الأيام المقبلة . . . وألا تفقد كلبات الديمقراطية والحرية معانيها كما استوعبناها . . . إذ لا فائدة ترجى من أن نعاقب النازيين على ما ارتكبوا من الجرائم إذا لم تظلل العدالة والقانون أوروبا . . . بدلا من الحكومات البوليسية إذا ما حلت محل النازيين ! وأنتا لانطالب بمغانم حربية بل لا بد لنا أن نتأكد أن المثل الرفيعة التي حاربنا من أجلها ستكون موضع الاحترام على مائدة الصلح كما أن علينا أن نجعل المنظمة العالمية المقبلة درعاً ، وليست لعبة في أيدي الدول القوية .

وكأنما كان تشرشل يخاطب في هذه الكلمة حليفته روسيا التي أحسن مؤخراً بأنها تسير في اتجاه آخر لم يكن في حسابان تشرشل قط . حتى لقد صرح بقوله « أن القلق من المستقبل الغامض ومشاعر الخوف تملأ صدري ، وكان تشرشل يرى وقتئذ أن الخطر الشيوعي قد حل مكان الخطر النازي .

وفي الوقت ذاته لم تكن اليابان قد استسلمت بعد .

ورأى تشرشل ضرورة مؤتمر يضم الثلاثة الكبار .

وبعث تشرشل إلى ترومان برسالة مطولة ، يوضح له فيها ضرورة عقد هذا الاجتماع وخطورة الوضع في أوروبا بعد انسحاب

الجيش الأمريكية منها ، والمطامع الشيوعية في أوروبا واستعمل
تشرشل - ولعل ذلك لأول مرة - تعبير الستار الحديدي عن
الدول الأوروبية التي تسيطر روسيا عليها ، ولكن ترومان لم يبد
تحمساً نحو تشرشل ، بل كان يؤثر أن يتقابل هو مع ستالين قبل
أن يلتقي بتشرشل وأحس الأخير بأن في هذا شيئاً يمسّه ، وكان
ترومان يؤثر ذلك حتى لا تثار الشكوك في نفس ستالين عن
تسكتل الولايات المتحدة ضده .. وكان تشرشل في الوقت ذاته يسعى
لتوطيد العلاقة مع روسيا بيد أنه كان يشعر بقلق بالغ من موقف
الروس إزاء قرارات مؤتمر يالتا ومن الموقف الروسي إزاء بولندا
ومن النفوذ الروسي في البلقان فيما عدا اليونان ومن السيطرة الروسية
في الدول التي تقع تحت سيطرتهم .. وكان تشرشل يتساءل عن
الحال بعد عام أو عامين بعد انسحاب جيوش أمريكا وإنجلترا ..
بينما تستطيع روسيا أن تبقى في أوروبا نحو ٣٠٠ فرقة لا تكاد
تواجهها فرق أخرى سوى بضع فرق فرنسية ضئيلة لا يعمل لها
أى حساب .

وكان « الستار الحديدي » كما أسماه تشرشل قائماً على الجهة
الروسية فعلاً .

وأخيراً اتفق ترومان مع ستالين على اجتماع يحضر إليه الثلاثة

الكبار في ١٥ يونيو عام ١٩٤٥ وبعث ترومان إلى تشرشل بذلك ورأى الأخير أن هذا الموعد بعيد وحاول تقريبه ولكن دون جدوى .. وكان تشرشل يرى أن مرور الزمن في غير صالح الدول الغربية ، فإن روسيا السوفيتية كانت تمتد نفوذها في كل يوم .. ويقول تشرشل : كيف صارت الحالة بعد ثمانى أعوام ، لقد اتسع خط الاحتلال السوفيتي في أوروبا من لوبيك إلى لينز وصارت تشيكوسلوفاكيا ضمن الدائرة السوفيتية وكذلك دول البلطيق ورومانيا وبولندا وبلغاريا فيما عدا يوغسلافيا .. ولم تنقذ إلا اليونان ! .

والأدهى من ذلك ، أن ترومان أصر على انسحاب الجيوش الأمريكية والبريطانية منذ أول يولييه رغم معارضة تشرشل في ذلك معارضة شديدة وكانت تتبع تلك الجيوش حشود متدفقة من اللاجئين الألمان الذين يخشون الحكم السوفيتي .. وهكذا توطدت أقدام روسيا الشيوعية في صميم أوروبا .

وفي الوقت ذاته كان تشرشل يخوض معركة الانتخابات في إنجلترا ، وكان مضطراً إلى المرور في بلاد إنجلترا كلها ، فمضى بحوب أنحائها في قطار اتخذه مقراً له في خلال زيارته لتلك المدن ، وكان يلقي ثلاث أو أربع خطب في اليوم بين الجماهير المحتشدة

منوهاً بما أنجز في خلال أيام الحرب . والعبء الكبير الذى قام به إلى جانب الإذاعات التى كان يديرها لتأييده . ومن الغريب أن تشرشل يذكر عن تلك الأيام فى مضاضة بالغة : كنت أحس أن ما حاربنا من أجله فى أوروبا قد أخذ ينهار وكذلك أخذت الآمال فى حلول سلمية تنطوى ، ، .

وبعد انتهاء عملية الاقتراع تمهيداً لفحصها بعد ثلاثة أسابيع مضى تشرشل فى أجازة يستريح فيها متجهاً إلى بوردو مع قرينته ، مضى معها وبرفقتها ابنته ماري . ليطالع بعض القصص وليستعيد ذكريات الماضى وليزاول هواية الرسم التى يؤثرها ، هذه الهواية التى قال عنها فى يوم ما أنها تنسيه كل شيء ، . إذ أن ذهنه كله يكون منصرفاً إليها .

وفى يوم ١٥ يولييه عام ١٩٤٥ وهو اليوم المحدد لاجتماع المؤتمر استقل تشرشل الطائرة متجهاً إلى برلين حيث سيعقد المؤتمر . . . وكان ترومان قد حضر فى اليوم ذاته . . . ومضى تشرشل لزيارته ، وكان هذا هو اللقاء الأول بينهما ، وإن كانا قد تراسلا قبل ذلك ، وارتاح تشرشل من الانطباع الأول لهذه المقابلة ، وقام الاثنان بزيارة خرائب برلين ، كما زارا مقر هتلر الذى انتحرفيه .

وفى يوم ١٧ يولييه حملت الأنباء مولد القنبلة الذرية الأولى

التي أجرت الولايات المتحدة تجربتها المثيرة في صحراء المكسيك وجاءت التفاصيل في التقرير الذي أرسل إلى تشرشل يذكر بأن القنبلة في منطقة دائرية قطرها عشرة أميال ، وأن العلماء ومساعدتهم وقفوا وراء دروع هائلة لحمايتهم وأن الانفجار كان مروعاً وله لهب ودخان هائل وقد شمل التخريب دائرة ميل تقريباً . . . التقى تشرشل بعد ذلك مع ترومان ومضيا يتحدثان عن الحرب المقبلة مع اليابان . . . هذه الحرب التي سوف تكون مريرة لأن اليابانيين سوف يقاومون بكل ما في أيديهم من الوسائل . . . وستكون الخسائر بالغة بين الطرفين قد تصل إلى مليون جندي أمريكي ومثل هذا العدد أو أكثر من اليابانيين . . . ودارت في رأسى الرجلين فكرة إنهاء الحرب مع اليابان بقنبلة أو بقنبلتين . . . وبذلك تنتهي الأمور ولا يحتاج الغرب إلى مساعدة روسيا التي وعدت أن تقوم بدورها في معارضة الحلفاء ضد اليابان .

ثم استقر الرأي بين ترومان وتشرشل على استعمال هذا السلاح الرهيب اختصاراً للمذابح والوصول بالحرب إلى النهاية . أما بشأن تعهد ستالين في مؤتمرى طهران وبالتسا فور الانتهاء من الحرب مع ألمانيا ، وأما الاستعدادات الروسية التي بدأت فعلاً لإنجاز هذا الوعد فقد رأى ترومان أن يبلغ ستالين شخصياً في الاجتماع بما استقر عليه الرأي .

وكان اليابانيون لا يزالون يقاتلون باستماتة ، وكان الأسطول الياباني قد نال ضربات قاصمة ، كما عمت الفوضى في كثير من الأرجاء إلا أن الرجال العسكريين في اليابان كانوا متشبهين بالحرب .

وأخيراً وجه الحلفاء إنذاراً عنيفاً لليابان ، بالاستسلام يوم ٢٦ يولية عام ١٩٤٥ ورفض اليابانيون الإنذار ، فبدأ السلاح الجوي الأمريكي إعداد العدة لإلقاء القنبلة الذرية وسبق ذلك تحذيراً للسكان المدنيين وألقيت يوم ٦ أغسطس للقنبلة الذرية الأولى على مدينة هيروشيما وفي يوم ٩ أغسطس أقيمت القنبلة الثانية على نجازاكي . وفي اليوم التالي ، وافقت اليابان على قبول الإنذار بشرط أن تظل سلطات الإمبراطور كما هي . . . ووقعت وثيقة الاستسلام يوم ٢ سبتمبر .

أما مؤتمر برلين بين الثلاثة الكبار فلم يؤد إلى نتيجة تذكر بالرغم من تشعب الحديث وخاصة عن بولندا التي كانت روسيا تشبث بها إلى النهاية مهما كانت النتائج ، إذ أن روسيا قامت بتوسيع حدودها إلى خط كرزون كما وسعت الحكومة البولندية الموالية لروسيا حدودها إلى النيسي الشرقي والغربي حيث يقطن الألمان هذه المنطقة الألمانية ويبلغ تعدادهم نحو عشرة ملايين فكيف يمكن أن ينتقل هذا العدد إلى داخل ألمانيا المفتقرة إلى الغذاء !

وقد حدث عند إتهاء الاجتماع يوم ٢٤ يونية عام ١٩٤٥ أن
توجه الرئيس ترومان نحو ستالين وأنهى إليه بالحدث التاريخي
الضخم ، وهو تجربة القنبلة الذرية في صحراء المكسيك ، ونتائجها
الرهيبية واستعمالها في اليابان لإنهاء الحرب معها ، أما ستالين فإنه
تلقى هذه الأنباء في شيء من المرح ، ولم يشأ أن يزيد شيئاً .

مهدير عجيب

كان برنامج حزب المحافظين في الانتخابات سيئاً للغاية ، فلقد كانت هناك مسائل على قدر كبير من الأهمية بالنسبة للشعب البريطاني الذي خرج بعد حرب طويلة يلحق جراحه ، ويتلفت إلى الإصلاحات الاجتماعية قبل كل شيء ، وبعد هذه الحرب الضروس التي احتمل شقاءها سنوات طويلة وكان من أبرز تلك المشكلات مشكلة البطالة والتأمين الاجتماعي .. وكان حزب العمال هو الحزب الذي يتطلع إليه الشعب البريطاني في هذه الآونة الحرجة بعد الحرب وكانت الصدمة عنيفة لتشرشل بفوز حزب العمال في الانتخابات ، بل لقد كان النبأ مذهلاً في كثير من الدول وتساءل الناس هل هو نكران للجميل من الشعب البريطاني إزاء الرجل الذي أنقذ إنجلترا وهي على شفا الانهيار؟ وفي الواقع لم يكن الشعب البريطاني ناكراً للجميل بقدر ما كان محتاجاً إلى الرعاية الاجتماعية والتأمين الاجتماعي وتدير العمل لأولئك الجنود العائدين إلى أرض الوطن ولم يكن تشرشل المحافظ في رأي رجل الشارع بالرجل الذي يستطيع أن ينهض بتلك الأعباء ، وفي الوقت ذاته أحس بعض المحافظين أنفسهم بأن تشرشل في حاجة إلى أن يعتزل الحكم ، فقد تقدمت

به الأعوام . . ولكن الرجل لم يكف عن نشاطه ، افضى يكتب المقالات ، ويخطب في أماكن كثيرة ، وبلاد كثيرة ، ولقد جاء وقت كان لتشرشل فيه شعبية في الولايات المتحدة أكثر من روزفلت ذاته ، ولا يمكن القول بحال أن استراتيجيته السياسية كانت منزهة عن الأخطاء ، ولقد رأينا أن المؤتمرات التي عقدت وتضم الثلاثة الكبار ، باءت بالفشل ولم تثمر أية نتيجة إيجابية ، وفي الوقت ذاته كان الروس ينظرون إليه نظرة مختلفة ، كانوا يحلون تشرشل باعتباره رجلاً صمم على هزيمة ألمانيا ، ولكنهم كانوا يكرهون ماضيه ولا يثقون في التعامل معه مستقبلاً .

ومن الغريب في هذا الصدد أن الجنود العائدين إلى أرض الوطن ، عندما أدلوا بأصواتهم في الانتخابات لم يمنحوا ثقتهم لتشرشل وتلك كانت صدمة عنيفة أخرى لتشرشل الذي لم يرتب أمره للانتخابات بل كان يحسب أنه سيفوز فيها على وجه التأكيد . فجاءت النتيجة مذهلة له ولغيره حقاً .

سافر تشرشل في شتاء عام ١٩٤٦ إلى الولايات المتحدة الأمريكية حيث أمضى فيها بضعة شهور ، زار في خلالها البيت الأبيض ووزارة الخارجية الأمريكية ، وتلقى تشرشل في أثناء

إقامته دعوة لإلقاء خطاب في كلية وستمنستر في فولتون في شهر مارس من السنة نفسها ، واستفهم تشرشل من البيت الأبيض ومن وزارة الخارجية الأمريكية عما إذا كان هناك ثمة مانع أو حرج إذا ما أثار في خلال خطبه أو أحاديثه بعض المسائل المتعلقة بالحرب العالمية الثانية وآثارها فجاءه الرد بأنه يستطيع أن يدل على بياناته كما يشاء . فأخذ من فوره يعد خطابه الموعود في الجامعة وكانت روسيا ماضية وقتئذ في تنفيذ سياستها الخاصة بإزاء الدول الأوروبية التي دخلت في نطاقها وقام تشرشل بتقديم الخطوط العريضة لخطابه لوزير خارجية أمريكا الذي أبلغ الرئيس ترومان بدوره بمحتوياتها ، وتوجه تشرشل إلى فولتون حيث سيلقى خطابه في القطار الخاص الذي يقل ترومان والذي كان سبرأس المحاضرة .

وكان أهم ما جاء في المحاضرة قول تشرشل : إن الإنسان لا يدري ما الذي تتطلع إليه روسيا وتنتويه في أوروبا في الأيام المقبلة وإلى أي حد ستعمل على تعميم دعوتها الشيوعية في تلك البلاد . . وإذا كنت أسجل هنا شديد إعجابي بالشعب الروسي لشجاعته وأكن له مزيداً من الاحترام ، فإنني لا أنكر كذلك مزيد العطف والنوايا الطيبة التي يحسها الشعب البريطاني نحو الشعب الروسي . . وكذلك الرغبة في بقاء العلاقات الودية بين الدولتين .

ولكنى أحسب أنكم تريدون أن أذكر لكم حقائق الأحوال كما
ألمسها وأن أبين لكم الأوضاع الراهنة في أوروبا ، لقد أنزل الستار
الحديدى على أوروبا من بحر البطريق شمالا إلى البحر الأدرياتي
ووراء هذا الستار توجد عواصم كافة الدول العريقة في القدم في
وسط أوروبا وشرقها . . هذه العواصم هي وارسو وبرلين وفيينا
وبلغراد وبودابست وصوفيا وبوخارست . . كل هذه البلاد صارت
تعرض للسيطرة الشيوعية وإشرافها ، عدا اليونان فقط ، اليونان
ذات التاريخ المجيد ، هي وحدها التي نجت من هذه السيطرة وستقوم
فيها انتخابات حرة وقد شجعت الحكومة البولندية التي يهيمن
السوفييت عليها أن تقوم باغتصابات طائلة من ألمانيا دون حق ،
وأنا الآن نرى طرد وتشريد الألمان بالملايين على نحو لا مثيل له
في أسود عصور التاريخ وتحاول الأحزاب الشيوعية التي لا تتمتع
بأية شعبية كبيرة في تلك البلاد السيطرة على مقاليد الحكم ، وكذلك
تسيطر الحكومات البوليسية في كل الأرجاء . ولا توجد أية
حياة سياسية ديمقراطية في أى بلد من هذه البلاد فيما عدا
تشيكوسلوفاكيا . . وكذلك صارت تركيا وإيران في حالة فزع
من المطالب المتكررة التي تطلبها الحكومة السوفيتية ، ومن الضغط
التي تعانيه ، وكذلك يقوم الروس بإقامة نظام شيوعى في المناطق
التي يحتلونها في ألمانيا ، وفي الوقت ذاته انسحبت الجيوش البريطانية

والأمريكية في شهر يونية عام ١٩٤٥ مئات الأميال لتحل محلها القوات الروسية . . وسوف تتولد متاعب غاية في الخطورة إذا ما حاولت الحكومة السوفيتية الآن عن طريق انفرادها بالامر إقامة دولة ألمانية شيوعية في المناطق التي تحتلها ، وهكذا سنعطى للألمان الذين انهزموا الفرصة للمساومة بين الديمقراطية الغربية والسوفييت . .

وكان لإلقاء هذا الخطاب أثره في الشعب الأمريكي الذي تأثر بما احتواه ، وفي نفس الوقت قبل الخطاب بهجوم مركز من الاتحاد السوفيتي ، وهاجم ستالين الخطاب باعتبار تشرشل من الاستعماريين الرجعيين بل شبهه ستالين بهتلر . . وأنه من دعاة الحرب وأعداء الاتحاد السوفيتي . . ومن الغريب أن بعض الأسئلة قدمت في مجلس العموم البريطاني عن هذا الخطاب باعتبار أنه يسيء إلى العلاقات الودية بين إنجلترا وروسيا ولكن المستر آتلي رئيس الوزراء أجاب بأن الحكومة لا يمكن أن تجيب على خطاب يلقيه أحد المواطنين الانجليز في خارج البلاد .

وكان تشرشل قد دعى لإلقاء خطاب آخر بعد أيام في مدينة نيويورك ، وكان من المقرر كذلك أن تشرشل سيكون ضيف الشرف على رئيس بلدية نيويورك . . وقد فوجئ تشرشل إذ رأى

لافتات كتبها الشيوعيون على واجهة فندق والدروف استوريا
الذى كان من المقرر أن يلقي تشرشل فيها خطابه ، في خلال مأدبة
العشاء التكريمية .. وكذلك فوجيء تشرشل باعتذار وكيل وزارة
الخارجية الأمريكية عن حضور الحفلة وجاء في خطاب تشرشل
في تلك الحفلة ، لقد أحسست عندما ألقيت خطابي السابق في
فولتون أنه ليس ضرورياً بالنسبة لرجل لا يشغل مركزاً رسمياً
أن يكون في حديثه متحفظاً عندما يتناول الأحوال الحاضرة في
أوروبا .. أو في العالم .. وأتني لانتهاز هذه المناسبة لأكرر بأنني
لا أرغب أبداً في العدول عن أى كلمة ذكرتها في خطابي السابق
فقد دعيت لإلقاء الكلمة الحرة في هذه البلاد الحرة ، وأتني على
يقين بأن الروابط التي توجد بين بلدنا ستزداد تأصلاً يوماً بعد
يوم دفاعاً عن القضايا الإنسانية وبشأن مصير العالم .. وذلك لضمان
الحيلولة دون وقوع حرب أو صراع عالمي جديد .. وهذا أوفق
من حدوث هذا الترابط بين الدولتين بعد وقوع الصدام كما حدث
فيما مضى .. وأن حرية جميع شعوب العالم وتقدمها سوف لا تحققة
منظمة عالمية وحدها دون جهود مستمرة وصادقة من نظامي المجتمع
في أمريكا وبريطانيا .

واستطاع تشرشل أن يجنب أنظار الصحافة الأمريكية بتلك
الكلمات التي أثارها ضد الاتحاد السوفيتي ، وخاصة لأن الصحافة

فيها تدعمها الرأسمالية الأمريكية وهي في عدااء تقليدي مع روسيا السوفيتية .

وفي خلال رحلة تشرشل إلى سويسرا في خريف سنة ١٩٤٦ زار جامعة زيورخ وألقى فيها خطاباً عن الحالة في أوروبا وفي هذا الخطاب دعا تشرشل إلى دعوة جديدة في أسلوبها واتجاهها بأن ترومان رئيس الولايات المتحدة قد اغتبط لدعوة تشرشل بإقامة منظمة للدول الأوروبية وأن هذه المنظمة لا تتعارض مع وجود منظمة الأمم المتحدة لا يقدر لها أن تحيا دون وجود منظمات إقليمية منسجمة على نحو طبيعي .، ودعا تشرشل إلى تناسي أهوال الماضي ، والتطلع إلى المستقبل دون كراهية أو رغبة في التآر وإن أول خطوة في سبيل إيجاد منظمة أوروبية قوية هي أن تقوم شركة بين فرنسا وألمانيا، وبذلك يمكن لفرنسا أن تستعيد زعامتها لأوروبا وأنه لا يمكن أن تتم عملية البعث في أوروبا دون قيام فرنسا . . . وقيام ألمانيا بدوريهما الفعال .

* * *

توفي ستالين في مارس عام ١٩٥٣ ، وكان تشرشل قد عاد إلى منصب رئيس الوزراء ، ولقد اعتقد تشرشل أن وفاة ستالين ستحل الجفوة التي شملت العلاقات مع الاتحاد السوفيتي فإن تشرشل

اعتبر وفاة ستالين نقطة تحول في تاريخ روسيا ، إذ كان ستالين طاغية تسبب في كثير من الضحايا في بلاده ذاتها ، ولم يكتف ستالين بعزل الجمهوريات السوفيتية ووضعها وراء الستار الحديدي بل جعل تلك الدول التي امتدت إليها يده في أوروبا وراء الستار الحديدي أيضاً وحدد اتصالها بالعالم الخارجي .

وألقي تشرشل أن الفرصة مواتية له أن يتقدم إلى مجلس العموم البريطاني عام ١٩٥٣ ليعرض اقتراحاً بعقد مؤتمر يضم رؤساء الدول الكبرى ، في سبيل تصفية الأمور المعلقة ، ورغبة في استقرار التفاهم بينها .

وكانت المسألة الهندية تشغل الرأي العام البريطاني . وكان من المعروف أن تشرشل كان يقف موقفاً معادياً بل شديد المعاداة لفكرة استقلال الهند ، وكان من أشد خصوم غاندي ، ولكن تشرشل تراجع عن آرائه البائدة ، لقد اقتنعت بتعديل أفكاره وآرائه الماضية بشأن الهند . . . والزمنا بأن نعطي للهند مركز الدومنيون ، مع إعطائها الحق في الانفصال عن جامعة الشعوب البريطانية إذا شئت ذلك . .

ولابد ونحن نستعرض حياة تشرشل أن نوضح هنا سياسته

نحو الصهيونية وليس أدل على أن تشرشل كان متحيزا إلى جانب
الصهيونية من أن نذكر أقواله في هذا الصدد فهي أبلغ دليل على
إعطاء فكرة صحيحة واضحة المعالم عن آرائه فهو يقول : « لقد
كنت منذ صدر وعد بلفور عام ١٩١٧ من أخلص أنصار القضية
الصهيونية ومؤيديها ولم أحس البتة أن البلاد العربية قد جنت منه
إلا العدل في معاملتها ، (وهذا تزيف واضح على الحق والتاريخ ،
فالبلاد العربية اكتوت من الاستعمار البريطاني بما يسع مجلدات
لتعداد ألوان السلب والنهب والاضطهاد والعبث بحقوق العرب .
وأن التاريخ الحديث وحده يكفي للدلالة على ما عانتها البلاد العربية
من الاستعمار البريطاني الذي قاوم الحركات التحررية فيها ، وحارب
أهل فلسطين العرب ومكن لليهود والنازحين من فجاج العالم أن يحلوا
محل سكان البلاد الأصليين ، وإن كان يظهر أنه لا يضر شراً
للدول العربية وهو تناقض لا يستطيع المرء تفسيره سوى أنه
يسعى إلى إرضاء الصهيونية العالمية وفي الوقت ذاته يقنع نفسه
بقناع عدم إظهار العداء للعرب ولكن الطراز الذي يؤثره تشرشل
من العرب هو طراز « الأصدقاء الأوفياء » .)

دراسة لشخصية تشرشل

إذا كان الاختلاف على سياسة تشرشل من الأمور المسلم بها فإنه لا يمكن إنكار دوره الذى سجله بجهده وأعصابه طوال السنين التى عاشها يخوض المعارك المختلفة .

ولقد تناولت إحدى الصحف الكبرى سيرة هذا الرجل بمناسبة وفاته بقولها : لقد تجمعت كل الظروف لتساعد صنع تشرشل الناجح ، فوالده لورد — وربما كانت مصادفة غريبة أن يكون يوم وفاة تشرشل هو اليوم السبعين لوفاة والده — ولذلك كان فى أسرة لها تقاليد عريقة وتتمسك بكل مظاهر الحياة والسلطة إذ شغل أبوه منصب ممثل الملكة فى إيرلندا ثم وزيراً للخزانة وقد خلق كل ذلك فى تشرشل اعتزازاً بتاريخ بلده وقدرة على التمسك بكل ماورثه الشعب البريطانى من أجداده، وفى نفس الوقت جعلته هذه الظروف يحب الحياة ولكنه كما كان يقول عن نفسه دائماً لم يكن يخاف الموت الذى واجهه فى حياته مرات متعددة ، ووضع لنفسه فلسفة عن جديته ، وأخذ الأمور جاءت . . . وكل شيء من ذلك سيكون طيباً .

وفى الوقت الذى ورث عن أبيه الاعتزاز ببلده وورث عن

عائلة أمه حب الكتابة والعمل الصحفي فهي أمريكية من بين أصحاب جريدة النيويورك تايمز ، وقد أعدته الأسيرة للعمل السياسى ، إذ لم يكن حتى نهاية القرن التاسع عشر فى بريطانيا عمل يتمتع بالهبة والمجد سوى العمل السياسى .. وكانت الأسيرة قد نالت شهرة تصل أحيانا إلى حد الأسطورة فهي تعرف كل شىء يحدث وكل زعيم يبرز حتى قبل أنها مرجع الجميع فى الشخصيات والأحداث وأصبح نشر شل بدوره يحمل نفس الأسطورة .

وكانت عائلة تشرشل تضم تيارين سياسيين متعارضين هما تيارا حزب الأحرار والمحافظين ، وإن كانت لم تفقد بسبب الخلافات الحزبية وحدتها . وربما كان ذلك من بين العوامل التى أثرت بعد ذلك فى تشرشل حتى أنه حين اختلف مع حزب المحافظين لم يجد صعوبة فى هجره إلى حزب الأحرار أو العودة إليه بعد ذلك ، وفى كل مرة كان يحمل الولاء للدولة أولا قبل الولاء للحزب .

وقد عمل تشرشل خلال عمره فى أكثر من عمل ، فهو رسام وقصاص وصحفى وجندى ورجل دولة ، وقد ساعده ذلك كله على تحقيق أكبر قدر من النجاح لم يحققه زعيم بريطانى آخر . وقد كان من عوامل نجاحه :

١ - أنه يتميز بأعصاب هادئة مهما بلغ التوتر حوله . فطوال

سنوات الحرب لم يفقد اتزانه مرة واحدة ، وقد يكون اكتسابه لهذه الصفة يرجع إلى مهنة الرسم . فهو يجلس الساعات الطوال يخطط الصور بالفرشاة في صبر فتعلم على لمساتها ضبط الأعصاب حتى استطاع أن يحقق به النصر لبلده . ولذلك وصفه هيوم رئيس وزراء بريطانيا السابق بأنه كان أعظم قائد في الحرب واستطاع وحده أن يرجح الكفة في الحرب العالمية الثانية من الهزيمة إلى النصر وقال ديجول أنه كان له الفضل في انتصار الحلفاء .

ويوم كانت جيوش الحلفاء تتراجع أمام الزحف النازي كان تشرشل يقول لشعبه أننا لن نستسلم . . سنحارب في الحقول والوديان . . في الطرقات وعلى قمم الجبال . . إن ردنا الوحيد على دعاة الهزيمة هو النصر .

وكان يمتاز بقدرة فائقة على استخدام الألفاظ حتى أن الملك إدوارد الثامن - وقد سبق الكلام عن ذلك طلب منه صياغة خطاب اعتزاله العرش ليتزوج من المطلقة الأمريكية . . ويبدو أن تشرشل اكتسب هذه الصفة من عمله الصحفي وتأليف الكتب وإذا أضيف لذلك ما يتمتع به من قدرة على السخرية في عرض رأيه لوضحت صورته في أية مفاوضات .

ويقال نقلا عن لسان إبنة تشرشل في مؤتمر يالطا أنه قال

لستالين أنه يعتبر نفسه صاحب فضل في أن الجيش السوفيتي ممتاز لأنه يعتبر نفسه مسئولاً عن إعادة تنظيمه . . وسط دهشة الجميع استطرد تشرشل قائلاً : إنه كان مسئولاً عن تنظيم عملية التدخل الحربي ضد روسيا بعد الثورة البلشفية مما اضطر الحزب الشيوعي إلى إعادة تنظيم وبناء الجيش .

٣ — وكان يتمتع بقدر كبير من الذكاء واللباقة لعرض وجهة نظره ، ولعل خير مثل يوضح طبيعته أنه قدم إلى أتلي مرة — وكان يجلس بجواره — سيجارا ، وكان نادراً ما يفعل ذلك ، ويقول أتلي بعد ذلك أنه فرح بالسيجار واعتبره شرفاً ولكنه سرعان ما اكتشف الحقيقة أن تشرشل قدم له السيجار ليدخنه لأنه يكره رائحة الغليون الذي كان أتلي يدخنه .

٤ — أنه بدأ حياته بالعمل خارج بريطانيا سواء كصحفي أو جندي أو رجل دولة ، وقد ساعده ذلك كثيراً في خلق شخصية دولية أحترمها خصومه قبل الحلفاء له — حتى أن صحيفة تاس السوفيتية قالت في وصفه بأنه شخصية نادرة وإن كان تشرشل بعد الحرب الأخيرة كان الرجل الذي أعطى إشارة البدء للحرب الباردة ضد السوفييت .

ونظرة على حياة تشرشل نجد ما خير مثل لحياة بريطانيا نفسها

والمعروف أن هناك علماً جديداً في السياسة ينظر إلى تطور حياة الدول مثل الأشخاص فهي تمر بمرحلة طفولة وشباب ثم رجولة تصبح أخيراً شيخوخة .

ففي عنفوان شبابه كانت الإمبراطورية البريطانية في قمة مجدها فشارك تشرشل بشبابه في تدعيم بنيانها ، إذ اشترك في كل الحروب لتدعيم الإمبراطورية وبدأ في ثورة كوبا ثم اشترك في القتال لاحتلال الإقليم الشمالي الغربي من الهند بعد ذلك بعامين وفي العام التالي ١٧٩٨ اشترك مع القوات البريطانية في مصر في حملة السودان . وفي العام التالي مباشرة اشترك في حرب البوير كمراسل حربي حيث أسر ولكنه استطاع الفرار في مغامرة تكادت تكون أسطورة سينمائية . كما أوضحنا ذلك على وجه التفصيل .

وقد بدأت شيخوخة بريطانيا مع شيخوخة تشرشل .

ولم يقف تشرشل عند حد الاشتراك في الحرب فقط ، بل أنه بادر بإشعال الحرب الباردة حين تحدث بعد الحرب العالمية الثانية في الولايات المتحدة عن الحليف الروسي . . وكانت بداية مرحلة جديدة . . وعنيفة من الحرب الباردة . . وهو أول من خلق كلمة الستار الحديدي في خطاب له في أغسطس سنة ١٩٤٥ بمجلس العموم البريطاني .

وتشرشل يحمل لقب سير ، وقد رفض لقب اللورد الذى كانت الملكة تريد منحه لياه حتى لا يفقد معقده فى مجلس العموم . . وقالت الملكة أنها مستعدة فى أى وقت يراه تشرشل أن تعيد عليه عرض لقب اللورد .

وحصل تشرشل على لقب «مواطن شرف» للولايات المتحدة ، إذ كانت أمه أمريكية وكان يصف نفسه بأنه وحده كشخص يمثل الوحدة بين أمريكا وبريطانيا .

ونال تشرشل جائزة نوبل فى الأدب على مذكراته سنة ١٩٥٣ وقد علق رئيس اللجنة على ذلك بأنه جرى العرف أن تعطى الجائزة شرفاً لمن ينالها إلا هذه المرة حيث نالت جائزة نوبل شرف قبول تشرشل لها .

وتعتبر مذكرات تشرشل من أهم الآثار السياسية التاريخية التى كتبها رجل سياسى فى العالم على مر العصور ، فهى تصوير حى للأحداث التى وقعت فى العالم فى هذا القرن ، وتعتبر مرجعاً لاغنى عنه ، لكل رجل عسكرى وسياسى وتاريخى بل لكل شخص مثقف عليه أن يتابع أحداث الزمان ، ويدرك كنهها ، فهذه المذكرات الحافلة بسرد الأحداث الدولية المتعاقبة ، من المعارك والمؤتمرات والأحداث والمغامرات صورة حية نابضة ، كتبها تشرشل

بأسلوب رائق ، سهل . تفيض بتفاصيلها الدقيقة في تبيان تلك الأحداث العالمية بما يجعلها سجلاً هائلاً لحقبة هامة في تاريخ البشرية . . وإذا كانت هذه المذكرات فيها جوانب لا يتفق فيها المرء مع صاحبها في الرأي إلا أنها لا يمكن أن تفقد قيمتها التاريخية والسياسية الكبيرة .

* * *

ويجمل بنا ونحن ندرس شخصية تشرشل أن ندرج هنا رأى أحد كبار فلاسفة هذا العصر في تشرشل ونعني به الكاتب الاشتراكي هارولد لاسلكي فهو يقول ما نصه عن تشرشل في كتابه عن ثورات العصر :

... وأنا لا أنكر لحظة واحدة أن ما من سياسي أبداً تمثلت فيه إرادة شعب متحد في النصر تماماً أكمل مما تمثلت في مستر ونستون تشرشل أو بصورة أروع . بيد أنه من الأهمية بمكان أن نتذكر أولاً أن الطبقة الحاكمة نبذت ثمانى سنوات في احتقار تشخيص مستر تشرشل لأخطائها ، ولم تلجأ إليه إلا في اللحظة الأخيرة بعد أن كادت الكارثة تقع ، ومن المهم أن نتذكر أن قبولها لزعامته كان يتضمن شرطاً هو ألا تمس أسس الديمقراطية الرأسمالية ، وقد سمح له أن يضع ضهادات على الجروح المفتوحة ،

ورفع المكافآت العائلية لأفراد القوات المسلحة ، وزيادة معاش الشيخوخة ودفع الأجور الزراعية الخ . . وأنا لا أقلل مطلقاً من شأن هذه الإجراءات ، ولكن لا بد لي من ملاحظة أنها تركت المسائل الحيوية الخاصة بعلاقات الإنتاج دون مساس . . وإذا قيل أن زعماء النقابات وحزب العمال قبلوا هذه السياسة - سياسة تشرشل - فلا بد لي مرة أخرى من ملاحظة أنهم كانوا يستطيعون أن يتحدوها دون أن يعرضوا لخطر التمحيط تلك الوحدة القومية التي أثبتت التجربة الفرنسية المبررة أنها شرط أساسي للنصر . إن أحزاب الطبقة العاملة كانت تواجه معضلة إنها إما أن تقبل ما كان مؤيدو مستر تشرشل على استعداد للتنازل عنه أو أن تكون عامل هزيمة ، وكانت تعرف أنه مع الهزيمة على يد هتلر لمن يكون للطبقة العاملة في بريطانيا أي مستقبل يتطلب من هذه الأحزاب التفكير فيه .

وكذلك تناول هارولد لاسكي الحديث عن تشرشل في مقام آخر بقوله : ليس من بين الساسة الذين قضوا حياتهم في معترك بريطانيا التقليدية من رأى بوضوح أكثر ، أو بشجاعة أكبر ، في سنوات ما قبل الحرب ما رآه مستر تشرشل من أن هتلر يعنى الحرب ، كما لم ير أحد منهم العواقب البشعة بالنسبة لبريطانيا من استعدادات هتلر للحرب أكثر وضوحاً مما رآها هو . . بيد أنه

من الواضح تماماً أن تشرشل لم يفهم مطلقاً القوى الاقتصادية التي كان هتلر ممثلاً لها، ولا الأسباب التي جعلت الغالبية الساحقة من حزبه من «المهدين»، حتى شارف الأمر على نهايته. وهذا هو في اعتقادي الإستنتاج السليم في أن مستر تشرشل لم يفهم إلا بعد دخول إيطاليا الحرب، أن موسوليني يمثل نفس مجموعة القوى التي يمثلها هتلر، فقد أدرك في سنة ١٩٣٣ حقيقة أن هتلر خطر يهدد قوة بريطانيا، ولكن دلالات الفاشية الإيطالية لم تحركه لأن موسوليني لم يكن في وقت من الأوقات خطراً يهدد سلطة بريطانيا، إلا بوصفه تابعاً لهتلر، وهو يشعل الحرب في شجاعة وبطريقة ممتازة حتى يحافظ على هذه السلطة. وليس هناك مجهود لا يبذله أو تضحية ليس على استعداد لتقديمها للإبقاء عليها. إن الرجل الذي استطاع بإيماءة سامية أن يعرض على فرنسا الاتحاد، والذي استطاع بإيماءة أخرى أن يمحو سوء النفاق مع روسيا الذي استمر جيلاً، لم يكن ينقصه شيء من القوة التقليدية للاستقرارية حتى يرتفع إلى مستوى الأحداث. وأنا أعرف مدى عمق الإلهام الذي منحه مستر تشرشل للناس الأحرار، لا في بريطانيا وحدها بل في العالم أجمع وإن إعجابي به لا يفوقه إعجاب.

ومع ذلك فرأي أن مستر تشرشل لم ير الطبيعة الحقيقية لهذه كالمير «بيرك»، طبيعة الثورة الفرنسية. وهذا هو السبب في أنه

يحاول إشعال حرب شاملة دون أن يكيف إطار علاقاتنا الإنتاجية لعراقبها . وهذا هو السبب في أنه استطاع أن يعلن أننا نقاتل في سبيل الديمقراطية والحرية ويترك في نفس الوقت مشكلة علاقاتنا مع الهند بلا حل . وهذا أيضاً هو السبب في أنه يصر على أن ما يهيمه هو المحافظة على بريطانيا « التقليدية » . . . والسبب كذلك في أنه لم يفهم ما يعنيه قانون « النزاعات المهنية النقابية » الذي صدر في سنة ١٩٢٧ والذي يعد هو شخصياً مسؤولاً عنه إلى حد كبير بالنسبة للملايين من العمال . . . إن الفروض التي يقوم عليها تفكير مستر تشرشل حدها العالم القديم الذي يموت ، كما كانت الفروض التي يقوم عليها تفكير « بيرك » محددة بعالم ١٧٨٩ فهو لا يستطيع أن يرى كما لم يستطع بيرك أن يرى معالم العالم الجديد الذي يجاهد حتى يخرج إلى النور .

وإذا كان مستر تشرشل بمواهبه العظيمة في القلب والعقل وبشجاعته في المخاطرة وبعدم قدرته النيلة على قبول الهزيمة يتطلع الماضي مستلماً وحيه ، فإنه مما لا يدعو إلى العجب أن أولئك الذين يقودهم لا يرون أبعد مما يرى إلا نادراً ، فلورد هاليفاكس يتحدث بلغة المذهب الذي يقول بحق رجال الدين في الإشراف على تصرفات الناس وهو المذهب الذي ظلت الكنيسة تبشر به ألفي عام دون أن تستطیع تطبيقه ، ولا يبدو أن مغزى مذهب

استطاع أن يكيف نفسه مع الرق والإقطاع والرأسمالية قد تبلغ
لذهنه . . . ويحدد مستر إيدن ايدلوجية ديموقراطية المحافظين
« التورى » ، فى لهجة دزرائيلى الذى كتب « سيبيل » ، ولكن لا يبدو
أنه قد استنتج من مسلماتها الوجود المستمر لطبقة متميزة لم تشعر
تاريخياً ، بمقتضيات النبل إلا عند ما أحست بأنها تستطيع أن تقوم
بها دون أية تضحية لاداعى لها بالعوامل التى توطد سيطرة الامتياز
على الطبقة . . . وسير كنجسلى وود الذى ظل طوال هذه المدة
مصرأ على التعامى عن دلالات الهتيرية ، يمثل وجهة النظر الأصلية
لرجل الأعمال المحافظ فالصكوك يجب أن تدفع لأن الافلاس مغل
بالشرف والتضخم النقدى خطر ، ولكننا لم نسمع كلمة واحدة
من سير كنجسلى وود تشير إلى أننا وصلنا إلى حقبة يتطلب الأمر
فيها مفهومات اقتصادية واجتماعية جديدة .

وباختصار أن الحزب الغالب فى « الحكومة القومية » —
ويعنى به حزب المحافظين — يتحرك نحو مجتمع مخطط دون أى
مجهود جدى لأن يرسم لنفسه صورة لطبيعة التخطيط وامكانياته
فهو يفترض أن ما أطلق عليه مستر تشرشل « بعض الإجراءات
العملية فى التعمير » ستواجه مقتضيات الموقف بصورة ما . ومع
هذا فهو يدرك فى قلق أنه إنما يواجه دلالات ذات طابع ثورى
حتى وهو مستمر فى اتباع سياسة « تسير الأمور بصورة ما » ،

القديمة . وحقيقة أنه يتبع هذه السياسة هي ، بطبيعة الحال ، التي تدفع الحزب الشيوعي إلى الإصرار على أن قيام ثورة عنيفة أمر لا مفر منه ، وإذا لم يحدث تكيف بالرضا فإن الالتجاء إلى العنف يبدو بوضوح في طبيعة الأشياء التي تواجهنا .

ويستكمل هارولد لاسكي وصفه لشخصية تشرشل وتحليلها تحليلًا دقيقًا من وجهة نظره الاشتراكي قائلا :

« إن الطبقة الحاكمة في بريطانيا - يعني المحافظين - رغم رغبتها الشديدة في هزيمة الهتلرية ، تريد بشدة أن تنظم هذه الهزيمة على أساس شروطها ، فهي تدرك في قلق أن هناك قضايا خطيرة محل جدل ، ولكنها مصممة على أن تحدد ، إذا استطاعت المبادئ أن تحدد على أساسها هذه القضايا ، وهذا هو السبب في أن الحرب - يعني الحرب العالمية الثانية - لم تشهد أي تجارب عظيمة فيما يتعلق بالإجراءات أو بالناس . فأيا منها قد يكشف عن حقيقة أن الأسس التقليدية لمجتمعنا ليست أسسه الضرورية . واهتمام المحافظين بالحيلولة دون تكشف هذه الحقيقة للجماهير ليس أقل كثيراً من احساسهم بالضرورة الملحة للنصر . لأن زعماءهم غير مستعدين ، حتى عندما يكون السكان القومي مهدداً ، للتجربة مع ديناميكية الديمقراطية ، وينطبق هذا على علاقات الإنتاج في الداخل ، كما ينطبق على التفكير في شؤون الإمبراطورية

في الخارج . وانهار الديمقراطية في فرنسا ليس سوى الشرط
الآخر في مجموعة من المعادلات الاجتماعية لن يحلها ، سواء في
بريطانيا أو أمريكا مجرد تحقيق النصر .

وإذا قيل أن مستر تشرشل يتولى قيادة قوى المحافظة وأنه
بوصفه رئيساً للوزارة قد أثبت بما لا يدع مجالاً للجدل أنه ما من
شئ لا يدفعه في سبيل النصر ، فإن هناك ، فيما اعتقد ، بعض
التحفظات المهمة التي يجب ذكرها ، فأولا من الضروري ، إدراك
أنه كانت في أوروبا حرب قائمة غير معلنة على الأقل منذ الفترة
التي أعاد فيها هتلر تسليح أرض الراين ، ولكن قوى كبيرة استمرت
عدة سنوات بعد ذلك تعترض على تشخيص تشرشل للموقف
وما اقترحه من علاجات له . ولم تقبل زعامته إلا بعد أن سقط
الجزء الأكبر من أوروبا الغربية صريحا تحت أقدام هتلر ، وصحيح
في اعتقادي ، القول بأن قيام حكومة تشرشل كان من عمل الأمة
وأنه فرض بواسطة الرأي العام على حزب المحافظين الذي ظل
مخترة طويلة ينفر من دلالاته .

والسنة الأولى في حكم مستر تشرشل تجعله جديراً ، من أية
ناحية نظرت ، بأن يحتل مكانة عظيمة في التقليد السياسي البريطاني

فقد صار بطريقة تدعو إلى الإعجاب ، رمزاً لإرادة أمة في البقاء
في مواجهة خطر جسيم . فقد أظهر شجاعة وعزماً لا يقل قدرة
على المحافظة على ثقة الشعب في نفسه واعتزاز بالنفس لا يقهر
ولا يقبل الهزيمة أبداً . أظهرها جميعاً بدرجة لم يسبقه إليها أحد
في تاريخنا . بيد أننا يجب أن نلاحظ أنها ، قبل كل شيء فضائل
الارستقراطي ، وهي تكشف عن الرجل الذي ورث تقليداً
امبراطورياً عظيماً صمم على المحافظة عليه ، وهي صفات جذروها
في الأعمال العظيمة الماضية أكثر مما هي في القدرة على التكيف في
مستقبل بدأ فجره . فليس في سياسة مستر تشرشل أية جرأة بمعنى
أنه أبدى قدرة على التجديد تتناسب مع الخطر الملح ، بل على العكس
أن أساس سياسته نفسها قامت على المطالبة بعدم مناقشة أية قضية
قد تكون موضع خلاف . والواقع أنه قد أصبح بصورة متزايدة
أن مستر تشرشل نظر إلى هذه الحرب على أنها لا تختلف في
جوهرها عن حروب الماضي العظيمة ، فقد كان يمثل « مارلبورو »
— لقب أسرته — يقاتل لويس الرابع عشر أو « بت » ، يقاتل
نابليون ، فلم يهتم تشرشل بالدلالات الاجتماعية للصراع ، فهذا
جانب من طبيعة الصراع غريب عن عبقريته أو شخصيته ، وأي
تقدمية اتسعت بها وجهة نظره نتاج نزعه الارستقراطي نحو الكرم
وقد استطاع أن يبلغ أقصى درجات النخوة عندما يرى مآسى الحرب

ويتأثر بها - كما حدث عندما رأى آثار الغارات الجوية - ولكن لم تكن لديه أية فلسفة عن الصراع تجعل خياله يرى مغامرة السياسة التي لا تنتهى فى أضواء جديدة ، ومن ثم لم يطلب إلى قوة المحافظين أن تخوض غمار الحزب على أسس لعلمها كانت أرغمتهم على التفكير فى تغيير أساس القوة الاجتماعية تغييراً جوهرياً .

وربما كان اضطر إلى فعل ذلك لو أن حزب العمال طالب بهذا التغيير . وهناك شيئان منعاً حزب العمال من المطالبة بذلك . الأول هو حقيقة أنه خلال شهور الخطر الشديد التى أعقبت اشتراكه فى الوزارة لم يفكر فى شىء سوى بقاء الأمة ، وهو ما يزيد فى مكانته إلى حد عظيم وعندما وجدت بريطانيا أنها لم تعد وحدها كانت الخطة التى يمكن أن يتم فيها التغيير بمجرد طلبه قد مرت . والثانى هو حقيقة أنه لم يمض بضعة أسابيع على اشتراكه فى الوزارة حتى كان تشرشل قد حظى بتفوق معنوى كامل على حزب العمال بحيث صاروا غير مستعدين للعمل على إدخال تغييرات قد تعرضه لمصاعب مع أتباعه من المحافظين . ولذلك على الرغم من أن حزب العمال تقدم ببرنامج أصر فيه على ضرورة إدخال تعديلات أساسية بوصفها جزءاً من المجهود الحربى إذا أريد ألا تذهب ثمرات الانتصار على الهتلرية سدى ، فقد قبل زعماءه دون مقاومة رفض مستر تشرشل لهذا البرنامج على أساس أن الخلافات فى وقت الحرب فى يد

تهدد وحدة الأمة ، ولم يترك هذا القبول المبادأة الحيوية بتحديد سياسة الحرب في يد مستر تشرشل فحسب ، بل لقد عني أيضا أننا سنكسب الحرب ، كما كسب دبت ، الحرب ضد نابليون دون أى مساس بأساس القوة الاجتماعية . أى أن بريطانيا ستنظر في القضايا التي تثار من أجلها الحرب بعد النصر ، وليس قبله .

وبمجرد أن نفهم ذلك تصبح أشياء ذات أهمية واضحة . أولا أن الطبقة الحاكمة البريطانية — أى المحافظين — سيكون في وسعها أن تدافع عن امتيازاتها دون الإحراج الناجم عن وجود عدو خارجي قوى يجبرها على التسليم فيما يتعلق بالمبادئ ، للجماهير التي يعد تعاونها أمراً جوهرياً للنصر . ثانياً ، أن عدم الربط في وقت الحرب بين الديمقراطية البرلمانية وإجراءات واسعة للتغيير الاجتماعي تم بالرضا لا بد أن يؤدي إلى إضعاف سلطتها على الرأي العام في فترة ما بعد الحرب ، ويجب أن نضيف هنا أن إضعاف مركزها الإنشائي في الخارج لن يكون أقل ما يصيبها من ضعف في الداخل . ويؤكد عدم الربط هنا بين الديمقراطية البرلمانية والتغيير الاجتماعي تفرقة قلما أشار إليها الكتاب الإنجليز منذ سنة ١٨٤٨ وهي التفرقة بين الحكم النيابي وحكم الشعب للشعب ، فالأول ليس الثاني إلا إذا أدرك أن العدالة مستحيلة بين الناس عندما يحدد حقهم في الرفاهية بما يملكون

وما يسيطرون عليه من ممتلكات . وثالثاً من الواضح أن الأساس الاشتراكي لحزب العمال شكلي أكثر منه جوهري . ويتضح هذا من حقيقة أنه سمح لزعمائه بقبول مجموعة من الإصلاحات الاجتماعية البسيطة من مستر تشرشل ، وهي إصلاحات افترض فيها جميعاً لا مجرد أن توسيع نطاق الرفاهية يمكن بصورة دائمة في فترة التقلص الرأسمالي — وهو الغرض النموذجي لحزب تقابلي تصاغ مبادئه على أساس التجربة اليومية وليس على أساس التحليل الفني التاريخي — فحسب بل وافترض فيها أيضاً أن احترام الإجراءات الدستورية عادة دائمة من عادات الطبقة الحاكمة البريطانية .

* * *

وهذا التحليل السياسي الدقيق الذي عطينا بآثاره هنا ، والذي تناول فيه هارولد لاسكي في عمق ودقة فحوى سياسة حزب المحافظين وسياسة حزب العمال ازاءه ، والدور السياسي الذي كان يمثله تشرشل يعطينا فكرة واضحة المعالم عن شخصية تشرشل واتجاهاته السياسية .

كتبه وآثاره

ألف تشرشل مجموعة ضخمة من الكتب ، ومن أشهر مؤلفاته «راندولف تشرشل» ، عام ١٩٠٦ والازمة العالمية في أربع مجلدات عام ١٩٢٣ - ١٩٢٩ وحياتي الباكرة عام ١٩٣٠ والجبهة الغربية عام ١٩٣١ ومار لبرو في أربع مجلدات عام ١٩٣٣ - ١٩٣٨ وعظماء المعاصرين عام ١٩٣٧ وأحاديث الحرب ٨ أجزاء في عام ١٩٣٨ - ١٩٤٦ ومذكرات عن الحرب العالمية الثانية عام ١٩٤٨ .

وتعتبر مذكرات تشرشل قمة آثاره السياسية التاريخية لما اشتملت عليه من صور وأحداث سياسية وشخصيات لعبت أدوارا هامة في حياة العالم في هذا العصر .

وكذلك خلف تشرشل مئات من المقالات التي كتبها في كثير من الصحف البريطانية باعتباره أحد محرريها ، وكان تشرشل إلى جانب هذا أديبا قذا ورساما من طراز ممتاز وقد حازت لوحاته الاشادة بها في الأكاديمية الملكية عام ١٩٤٧ . . . كذلك كان خطيبا بارعا يعرف انتقاء الكلمة الحاسمة اللائقة في الوضع المناسب لها ، وفي أوقات فراغه كان إلى جانب هواية الرسم ، يلجأ إلى زرع حديقته وغرس الأشجار فيها وتنسيقها . . وكان يميل

إلى أن يلتقى حوله طائفة من الشباب المهتمين بالسياسة ليبتهم آراءه السياسية .. هذه الآراء التقليدية التي كان يحرص علىها والتي كانت تصطدم مع كثير من التيارات الفكرية الحديثة في المجال السياسي ...

ولابد من الإشارة هنا إلى أنه تزوج عام ١٩٠٨ من كلنتين أوجيفلي ابنة سير هنري مونتاجو هوزير وأعقب منها ولداً وثلاث فتيات وكان زواجه سعيداً وقد وقفت قرينته معه في أحلك ساعات حياته تسانده وتشد أزره وتعاضده .

وفي يوم ٢٤ يناير عام ١٩٦٥ مات تشرشل السياسي العجوز الداهية بعد أن صارع الموت زهاء ثمانية أيام ، مات أقوى شخصية سياسية في بريطانيا ، والذي يعتبر - في حكم الكثيرين - أعظم من أنجبتهم تلك البلاد شأناً إذ أنقذها بمضاء عزيمته من الانهيار ، وإذا كانت سياسته واتجاهاته موضع خلاف وموضع نقد وهجوم ، فإنه مما لا شك فيه أن شخصية تشرشل السياسية لعبت دورها الرئيسي في عصرنا الحديث .



هَذَا الْكِتَابُ

يُشتمل هذا الكتاب على سيرة حياة السياسي العجوز الداهية
ونستوف تشرشل ، بكل ما اشتملت عليه من مغامرات ومناقضات
وعجائب .

والواقع أن سيرة هذا الرجل الذي قيل عنه بحق
« أنه آخر حلقة أسطورية في تاريخ الأباطوريات المنقضية »
ملئمة بألوان غريبة لا تخطر على البال ، في أعوام
حياته التي استطلت نحو قرن من الزمان . وإذا كان
الانجليز يعتبرونه بطلا قوميا أو شرفا اسطوريا ، أنقذ انجلترا
في أيام محنتها بعد أن اشرفت على الانهيار والدمار أو
كادت . فإن تاريخه من ناحية أخرى يمثل حقبة
طويلة من الزمن جديدة بأن تقرأ ليستعيد فيها المرء
الأحداث المتوالية التي مرت بالعالم في عشرين
الآخيرة الماضية .

وأما كونه في نظر أمته بطلا أو نحو ذلك فشيء لا يلتزم
به المؤرخ إنما يعنى هذا الكتاب باعطاء صورة واضحة المعالم
لأخلاق هذا الرجل وعاداته وسياسته ومغامراته وعمله
وكل ما اشتهر به شخصيته من صفات من خلال
الحوادث القريبة التي لازمت حياته الطويلة
وما مرّ بالعالم الذي ارتبط به من أحداث
وعجائب .

